طه وادي

رسالة..
إلى معالي الوزير

ديوان قصص

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي ـ الفجالة
ت : ٥٩٠٨٩٢٠

أحـــزان

رمسيس الثاني

إلى :
من أهمتْنى هذه القصة ،
فهيَ ـ وحدَها ـ تعرفُ
لمـــاذا ...؟!

جَ لستْ ... ونهرُ الحزن فى عينيْها ، تتأمل أعماقها أكثر ممَّا تنظـر حولهـا . أحسّـتْ أنهـا ترْعـى همومًـا فـى نفسـها وأحزانًـا فـى قلبها ...!! تدعو الله أن يُساعدها ، حتى لا تنام نومة الموت . عفاف بيْنهـا وبـين هـذا المكـان علاقـة روحيـة ، مقدارهـا أطـول مـن عمـر الزمان . منذ توفّى والدها عاصم عبد اللّه ـ رحمه اللّه ، تحسُّ أن هذا الموقع ـ لا غيره ـ هـو الحصـن الآمـن ، الـذى تحتمـى فيـه وبـه مـن عواصف الأيام . لا تدرى ما الـذى يربـط الإنسـان بالمكـان ..؟! ثمـة منازل كثيرة فى الأرض يألفها المرء طوال عمره ، لكن يظل هناك ـــ دوْمًا ـ موقع فى هذا العالم الكبير ، يشبه رحم الأم . الحبـل السـرى الذى يربطنا به لا ينقطع ولا يضعف . الإنسان ابن المكان .. أكثر مما

هو نبت الزمان . المكان هو .. الحنان والأمان .. نحن ثمرته .. أوْ ضحيته . كثيرًا ما صحبها العزيز الراحل إلى هذا المكان الخالد ، حيث يقف تمثال رمسيس شامخًا يتحدى الزمن ، ويطاول التاريخ ، ويسخر ـ فى كبرياء ـ من الذين أتوْا بعده .. وساروا حوله .. دون أن يدركوا سر العظمة ومغزى الخلود ..!!

ـ هذا التمثال العظيم ـ يا عفاف ـ ليس حجرًا أصم ، إنه سفر من أسفار الخلود ، وشاهد عدل على عظمة تلك الأرض المباركة وذلك الشعب العريق ، الذى خط بحروف من تبر ونور الصفحات الأولى فى تاريخ حضارة البشر .

كان ينبغى أن تذهب إلى المدرسة هذا الصباح ، لكن اليوم ذكرى وفاة الأب .. الصديق المعلّم . يقولون .. كل فتاة بأبيها معجبة ، غير أن إعجابها قائم على الوفاء والعطاء .. الاحترام والالتزام . لم يضق ـ يومًا ـ ذرعًا بأى طلب لها .. وما عجز ـ لحظة ـ عن فهم ما تريد ـ دون أن تتكلم . طوبى لك يا أبى .. فقد زرعت فى عقلى المعرفة ، وأنبتَّ فى قلبى الحكمةَ . الحكمة شجرة حياة .. مكاسبها أفضل من مكاسب الفضة ، وأرباحها خير من أرباح الذهب الخالص ؛ من أجل ذلك أصررتَ على أن أتخصصَ فى اللغة الإنجليزية :

– اللغاتُ مفتاح الحضارات يا ابنتى ، والاحتكاك يولد شرارة المعرفة ؟

– كيف يا بابا ..؟

– مفتاح المعرفة يا عفاف .. أن نتعرّف على الآخر .. أن نسمع صوته .. ونسمعه صوتنا . إذا نفيت الآخر فقد عزلت الأنا . الحكمة أن يراك الناس فطنًا .. تدرك – وحدك – سواء السبيل ، والغفلة أن تكون حكيمًا فى عينىْ نفسك .

يا أبى .. يا من ذهبت إلى السماء ، وتركتنى فى صحراء الحياة وحيدة عند مفترق الطرق المزدحمة .. وفى مداخل بوابات المدينة – القاهرة . أبحثُ .. يا أبى عن رجل فى مثل صفاتك وحكمتك ... فلا أجد ، لذلك لن أهب تفّاح الخد ورمّان الصدر لأىّ رجل . علقتْ إحدى زميلاتى قائلة :

– هذه عقدة إلكترا .. يا صديقتى .

لا .. لستُ معقدة . فتاة سوية أنا .. لن أتزوّج إلاّ من رجلٍ يحترمُ إنسانيتى قبْل أنوثتى . مضى إلى الأبد العصر الذى كانوا يقولون فيه : المرأة كائن ضعيف .. عاجز . أنا اليوم فى مثل قوتك .. يا جدّى رمسيس .

الساعة فى معصم يدها تشير إلى العاشرة من صباح يوم خريفى معتدل من أيام سبتمبر الأخيرة . الخريف يذكرها دائمًا بالعزيز

الراحل .. ذكريات .. ذكريات ..!! الميدان الكبير حولها يضج بزحام السيارات .. والمترو .. والناس ، ناس مختلفو الأشكال والأعمار مثل ألوان الطيف . هنا باب القاهرة ـــ الباب الحديدى ، الذى يستقبل القادمين ويودع الراحلين . أعطت ظهرها للميدان المزدحم ونافورة الماء التى تتفجر بين قدمى التمثال . رزاز المياه المتناثر ، يتساقط على الأجزاء العريانة من الوجه واليدين والقدمين ، فأيْقظها من حالة الشرود والنجوى . بدرت منها التفاتة حانية إلى التمثال . أغلقت زرار فستانها الأسود . أحكمت إمساك الحقيبة بيديها خوفًا من النشالين الذين يبيعون الترام للمغفلين ، ويسرقون ـ أحيانًا ـ الكحل من العين . إحدى نصائح الوالد : من لم يحافظ على نفسه .. داسه الناس بالأحذية ..!!

بأصابعها الرقيقة تمسح عينى الغزال ، حتى تتبين ملامح رمسيس . أمعنت النظر .. أرهفت السمع . الحزن فى عينيه وعلى قسمات وجهه . ملامح الحيرة والألم تضطرب عاصفة مثل أمواج البحر الأبيض . الملك العظيم الذى كانت تخر له الجبابرة ساجدين .. يبكى .. يتألم .. يشيح بوجهه .. لا يرغب فى أن يرى أحدًا . كيف .. لماذا .. لم يبكى الجد الكبير ؟ اللعنة تحل على الأحفاد عندما يسخرون بتراث الأجداد . اقتربت أكثر .. خلعت نعليها .. غطت

ساقيها . هذا مكان مقدس .. وتلـك لحظـة للتـأمل . تنظـر إليـه فـى عشق وصمت . فى صمت المحبين عبادة .

أخذت تتذكـر .. تتذكر مـا لم تنسـه منـذ سمعتـه بصـوت العزيـز الراحل ، يشعُّ فخرًا وكبرياء وحكمة :

ـ هذا القائد الجليل حكم مصر ـ يا عفاف ـ فـى القـرن الثـالث عشر قبل الميلاد . مرحلة حكمه تعد أطول فترة فـى التـاريخ القديـم والحديث . تصورى .. حكم مصر ما يقرب من سبعين سنة ، وتلـك وحدها حالة نادرة .. بل معجزة . وقد حارب أعداء مصر كلهـم .. وانتصر عليهم أجمعين بالرمح والدهاء والحنكة .

ـ هل تعرفين يا حبيبتى ؟

ـ أعرف ماذا يا بابا .

ـ هذا القائد العظيم انتصر على أعداء مصر فـى الشـام .. وطـرد الحيثيّين ـ الذين كانوا يسكنون أرض فلسطين . وهو أول مـن أدرك خطورة البوابة الشرقية ، التى دخل منها كثير من الغزاة الذين كـانوا يطمعون فى خيرات مصر ، لذلك عُنى بإقامة القـلاع والحصـون فـى سيناء وغيرها من مدن الوجهيْن البحـرى والقبلـى . حـدود المملكـة المصرية فى عصره ـ يا ابنتى ـ كانت تمتد من نهر الفرات فـى شمـال سوريا إلى بلاد النوبة والسودان مسافة ثلاثة آلاف ميل متصلة .

ـ كيف ..؟!

ـ رمسيس يا عفاف كان يملك إحساسًا متفردًا بالعبقرية باعتباره ملكًا لمصر ـ أم الدنيا . كان رجل دولة من طراز عجيب : قائدًا شجاعًا في الحرب وشئون القتال ، داهية في السياسة وأمور الحكم ، عبقريًّا في إدارة البلاد . نظّم أمور الزراعة والحصاد ، ونشر الرخاء في كل أرجاء الوطن العزيز . لم تكن مصر في عهده مملكةً .. وإنما إمبراطورية كبيرة مهيبة ، تخشى بأسها كل الأمم المجاورة .

ـ وماذا أيضًا يا بابا ..؟

ـ انتصارات رمسيس الحربية وإنجازاته العمرانية شيء .. وآثاره الفنية التي لا تزال باقية مثل الجبال الشمّ شيء .. شيء آخر ، فقد صنع ما لم يصْنعه حاكم في الشرق أو الغرب ، في القديم أو الحديث .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ العبقرية كل متكامل ، فقد أوتي جدنا العظيم موهبة فنية فذة ، حيث أكمل بناء معبد الكرنك الذي بناه أبوه الملك سيتي الأول .. ابن رمسيس الأول ، ووضع فيه بعض التماثيل له ولزوجته الجميلة ، وأسس معبد الرمسيوم في الضفة الغربية لنهر النيل ، ومعبد أبو سمبل ـ الذي يعد تحفة معمارية وفنية ، بالإضافة إلى مجموعة من المعابد والتماثيل في مدن المملكة شمالاً وجنوبًا . هذا التمثال القادم من قرية

ميت رهينة ــ التى كانت تسمى منف ــ ليس أضخم تماثيلـه .. وإنما هناك فى أسوان تماثيل أخرى .

ــ هذا كل تراثه ..؟!

ــ أفضل آثاره الخالدة ، بل أفضل آثار الحضارات القديمة كلها .. معبده الذى يقع بالقرب من أسوان . تصورى يا حبيبتى .. فـى هـذا المعبد ــ الذى لا نظير له ــ فتحة أسطورية ، تسـمح لضـوء الشـمس أن يصافح وجهه المهيب مرتين فى السنة : الأولى يوم عيـد ميـلاده ، والثانية يوم عيد جلوسه على عرش مصر . إنجاز وإعجاز . عبقرية فلكية وهندسية وفنية ، لا يعرف سـرها أحـد حتـى .. حتـى اليـوم . لم .. ولن يقدر أى حاكم فى العالم القديم أو الحديث أن يفعـل مثلمـا فعل ..!!

ــ لاحظت يا أبى فى سيرة هـذا الملـك العظيـم بعـضَ مـا يلاحظـه الرجال بعقولهـم ، لكـن ثمـة ملاحظـة رشـيقة ، لا تلحظهـا إلا امـرأة بعاطفتها الرقيقة ..!!

ــ ما هى يا ابنتى الحبيبة ..؟!

ــ كل تمثال من تماثيل جدنا العظيم يقف بجواره ــ بالحجم نفسه ــ تمثـال آخـر لزوجتـه الجميلـة . أرأيـت يـا أبـى كيـف كـان أجدادنـا الفراعنة يحترمون المرأة ، ويقدرون مكانتها ..؟!

استيقظت من شرودها علـى صـوت بـائع متجـول ، يعـرض بيْـعَ بسـكويت ، ونعنـاع ، ولبـان ، وسـجائر ، ومنـاديل ورق . أعطتـه جنيهًا فى صمـت دون أن تـأخذ شيئًا . لا تريـد أن تفيـق مـن حلـم جميـل . أخـذت تتـأمل ــ مـن جديـد ــ وجـه التمثـال علـى صـدى ذكرياتها مع الراحل العزيز . الآن بدأت تدرك سر أحـزان رمسيس العظيم ، لقد نقلوه من المكان الذى اختاره مقرًا له فى ميت رهينـة . صحيح أن مصر كلها مملكته ، لكنه ملك .. ملك لا نظـير لـه ، ومـا هكذا ينبغى أن يُعامل الملوك العظام ..!

اقتربتْ أكثر ... استيقظت خيـوط عاطفـة عـذراء ، لم تُعلـن عـن نفسها بعد . ودت .. لو تعانقه .. تلف ذراعيها حوله . هاهلا الفـارق الكبير : هى قزم ضئيل نحيل ، وهـو مـارد ضخـم فخـم مـن عصـور العمالقة والملوك الآلهة ..!!

ابتعدت قليلاً .. اكتشفت ــ فجأة ــ أنهـا كلمـا بعـدت .. بـدت الصورة أكثر وضوحًا . عجيب .. البعد يجعلنـا نـرى مـا لا نـراه فـى القرب ، ويجعلنا نتأمل بالوجدان ما لا تبصـره العينـان . هيِّـئ لهـا أن الجد يناجيها ، ويقول لها ما لم يقله لأحد من أبنائه أو أحفاده :

أنا حزين .. حزين يا عفاف . يبدو أن قومى لم يفقهـوا قـولى ، ولم يعرفوا أسرار حكمتى ، وخفايا سيرتى . إن مصر لا تأخذ من أبنائهـا قدر ما تعطى ، لذلك ينبغى لمن يجلس على عرش مصـر ، أو ينتسـب

إليها ـ ألا يلهو .. ويلعب .. أو يتخاذل عن خدمتها ، والتضحية من أجلها . فما وهبنا الرب الحياة إلا لكى نرعى ونصون هذه البلاد ، الخالد شعبها ، المقدس واديها ، المبارك نيلها ، المشرق تاريخها .. الذى لا تفنى ولا تزول آثاره . قولى للأبناء ـ يا عفاف .. يا حفيدتى النجيبة ـ إن أجدادكم صنعوا لكم حضارة ، لم يصل إليها قبلهم أو بعدهم شعب أو سلطان . علموا العالم كله .. الصيد والزراعة والصناعة والهندسة والطب والفلك وركوب البحر وغزو الصحراء وقواعد الأبجدية وسر الكلمة وقيمة المعرفة وحقوق الإنسان وكرامة المرأة .. وعبادة التوحيد .

إن مصر متحف مفتوح .. فوق كل حبة رمل من ترابها تاريخ لا يموت ، وعند كل حجر من صخورها مَعْلَمٌ لا يزول . فى كل بلد من بلاد العالم أثر من آثارها ، وقبس من ضوء معارفها . كل شعوب الدنيا تأتى إلى مصر طوعًا أو كرهًا .. لأنها مزار مقدس ، لابد أن يحج إليه البشر أجمعون . المصرى لا ينقصه شىء إذا لم يخرج من بلده ، وكل البشر لا تكتمل معرفتهم إلا إذا جاءوا إليها .. ليعرفوا بعض أسرار العبقرية والعظمة . من لم يشرب من نيلها فقد غابت عنه أسباب الخلود وأسرار الوجود .

أكثر من هذا ـ يا حفيدتى العزيزة ـ أن جندها أفضل أجناد الأرض ، ونساءها أكثر النساء فتنة وسحرًا ، فمن لم يتزوج مصرية

مات أعزب . أدولف هتلر ، الذى حارب الدينا ودوَّخ العالم ـ كان يخر راكعًا أمام تمثال جدتك نفرتيتى ، ولا يدخل معركة إلا بعد أن يتأمله فترة طويلة ، ويأخذ منه قبلة حارة .. تهيئ له أسباب النصر .

أحست عفاف أن قامتها تقوى وترتفع ، لأنها فتاة من مصر ، بل هى مصر الفتاة .. سليلة الفراعنة العظام الذين آتاهم الرب ما لم يؤت أحدًا من العالمين . امتزج تمثال الجد بشبح الأب وروح الحفيدة . لم يعد ثمة فارق بين الأمس واليوم والغد . جُمع الزمانُ فكان يومًا مقداره آلاف السنين .. ولحظة تتسع لقراءة كتب المعرفة وأسفار الحكمة .

يد الأب الحانية تربت على كتفها ، فأفاقت من حلمها . بدأت تنتبه إلى أنه قد طال جلوسها ، فنهضت واقفة .. جاءها صوت الأب من خلف أستار الغيب ، وهى تودع تمثال الجد العظيم :

لقد مضيتُ إلى حيث يمضى كل أهل الأرض . تشجعى .. كونى إنسانة واعية ، سوف يحالفك النجاح فى كل ما تفعلين ، وحيثما تتوجهين ، إذا حفظت حكمة الجد ونصيحة الأب . افتحى عينيك ترى الدنيا على حقيقتها .

تاهت عفاف وسط الجماهير المُزْدحمة .. التى تعبر ميدان رمسيس .. لكنها كانت .. كانت تعرف الطريق ...... (*)

(*) مكة المكرمة ـ الاثنين ٢٣ أغسطس ١٩٩٩ .

حكايــة

إدريس المصرى

(1 - 1)

ق ا م .. و .. نَ ا مَ ..

هذا الفعلان ..

يشكلان قوسيْن كبيريْن ، تحدثُ بيْنهما مواقفُ دالة من سيرة موظف مصري مُكافح .. خدم الدولة باعتبارها مؤسسة مقدسةً ، تَكمُن في المحافظة عليها كرامةُ الوطن وعزَّةُ الإنسان ؛ ونظراً لأن هذا الموظف المجهول .. يعدُّ مثالا لرجل كل العصُور ، فإننا نفسحُ له ـ ولزوْجه ـ المجال ، لكيْ يقصَّا بعض تلك المواقف : كل من زاوية الرؤية الخاصة به ، لأن هذه الطريقة في الحكْي تجعلُ البطلَ راوياً .. والراوي بطلاً ، وتوحِّدُ بينهما في فضاء سرديّ حَيويّ وديموقراطيّ في آن واحد .. !!

(1 - 2)

أنا إدريس كامل المصري ..

أعملُ رئيس الشئون المالية والإدارية بمجلس الدولة . وُلدتُ في قرية بالقرب من مدينة المنصورة عندما كانتْ الدنيا حُبْلى بنذُر الحرب العالمية الثانية ـ سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وألف . كان أبي ـ رحمه الله ـ كامل عبد الرحيم المصري فلاحاً ، لكنه آثر أن يُعلم أولاده الذكور الثلاثة ، وأصرَّ على أن يكونوا موظفين في الحكومة . الفلاحة ـ في رأيه ـ خيرُها شحيحٌ وغيرُ منتظم .. يأتي في العام مرة أوْ مرتيْن على أحسن تقدير . أما وظيفة الحكومة فبحر بلا نهاية .. بعد أن يمرَّ ثلاثةُ أسابيع تقبضُ راتبك في نهاية الأسبوع الرابع . مال الحكومة مال سائب .. لا أول له ولا آخر .. يمكن أن تحصل عليه إذا عرفتَ القواعد التي تحدد كيفية الصرف وطريقته . الناسُ في بلدنا يرددون .. إنْ فاتك الميري اتمرَّغْ في تُرابه ..!. أيامها كان الموظف امرءًا مهيبَ الجانب ، يعمل له الكثيرون ألف حساب ، وسمعته مثل الجنيه الذهب .. !!

اتباعاً لهذه السنة الحسنة توظف أخوايْ : محمد .. تخرج في كلية أصول الدين وعمل خطيب مسجد في المنوفية ، وإبراهيم .. تخرج في مدرسة المعلمين .. وعمل مُعلم صِبْية في مدرسة القرية الأولية ، أما

ثالثهم .. وهو أنا ، فقد تخرجتُ في كلية التجارة .. وعملتُ موظف حسابات في مجلس الدولة ، وتدرجتُ في السلم الوظيفي من الدرجة السادسة إلى الخامسة إلى الرابعة إلى الثالثة إلى الثانية إلى الأولى .. إلى أن أصبحتُ بدرجة وكيل وزارة .. وبعدها أُحِلتُ إلى المعاش .

في صباح اليوم التالي ..

قمتُ من النوم مبكراً في السادسة صباحاً – وتلك عادة حافظتُ عليها أربعاً و ثلاثين سنة وسبعة شهور وتسعة عشر يوماً .. هي مقدار عمري الوظيفي . حلقتُ ذقْني ، وأخذت حمّامًا بارداً . الماء البارد في الصباح نظافةٌ ورياضة وطهارة . تناولتُ ـ وحدي في غرفة النوم ـ فطوراً خفيفاً : شريحة خبز وقطعة جبن بيضاء ، وكوباً من اللبن .. اللبن يُقوّي العظام ، وينظم الدورة الدموية ، وينشّط الذاكرة .

لبستُ بدلتي الزرقاء الجديدة .. وتحتها قميص أبيض وكرافتة ذات لون وقور يمزجُ بين الأحمر والأزرق ، وجورباً رمادياً وحذاء أسود . الإنسان المتحضّر يحرصُ على تناسق الألوان . فما بالك إذا كان هذا الإنسان موظفاً محترماً بدرجة وكيل وزارة .. ؟ ! الموظف المسئول قدوة لمرؤوسيه حتى في الملبس . إذا لم يكن الرئيسُ قدوةً ، سادتْ الفوضى واضطرب النظام .

كدتُ أنسى شيئاً لم أنْسه طوالَ عمري الوظيفي .. ماء الكولونيا . الرائحةُ العطرة تجذبُ محدثك نحوك .. وتجعله يُجيد الإصغاء إليك . الله جميلٌ .. يحب الجمال . ومن أوْجب نِعم الله على الإنسان أن يَلقى عباد الله جميلَ المنظر حسن الهيئة . من يحافظ على مظهره ، يحافظ بالضرورة على جوْهره .. !

حركتي موقوتةٌ بالدقيقة ..

مثل ساعة سويسرية . في السابعة تماماً خرجتُ من باب الشقة ، بينما الزوجة تستعدُ لتهيئة الأولاد للذهاب إلى المدرسة . ركبتُ سيارتي الفيات متوجهاً إلى العمل . في الطريق المزدحم تراءتْ لي ومضات من سيرة حياة ، مرَّتْ سريعاً ، لكنها مضتْ بانتظامٍ وروِيّة .. ليس للمصادفة أيُّ دوْر فيها .

(1 - 3)

منذُ شغلتُ الوظيفة ..

كنت أول الداخلين وآخر الخارجين . ونظراً لأن عملي متصلٌ بأكبر هيئة قضائية في بلاد مصر المحروسة .. بإذن الله ، قررت أن أدرس القانون . هكذا جمعتُ بين بكالوريوس التجارة ، وليسانس الحقوق . وقد ساعدتْ هذه الدراسة المزدوجة على حُسن أداء العمل ودقته ؛ لأني كنتُ أحفظ اللوائح والقوانين ــ كما يحفظ طلبة

الأزهــر الشــريف (ألفيــة ابــن مــالك) .. ولي عليْهــا شــروحٌ وتفسيرات ، لا تقلُّ عن شروح ابن عقيل ، والأشموني ، وابن هشــام الأنصــاري المصــري . كنــت المرجــعَ الأول في بُنــود اللوائــح الماليــة والإدارية ـ لا بين موظفي القسم فحسب ، بل إن بعض المستشــارين الثقات .. كانوا يسترشدون برأيــي في بعـض المسـائل الـتي تحتـاج إلى اجتهاد وتأويل .

وقد ساعد كل ذلك على أن أكون ذا سمعة طيبــة وسـيرة محمـودة لـدى الرؤسـاء المباشـرين وغـير المباشـرين .. بــل لا أنكــر أن هــذا الاجتهاد ساعد على الترقّي الاستثنائي . منــذُ حصلــتُ علــى الدرجــة الرابعة ، صرتُ انتقل من درجة إلى أخرى قبل الموعـد المحدد بسـبب كفاءتى الوظيفية من ناحية .. ورضاء كل المسـئولين عـني مـن ناحيـة أخرى ، من أجـل ذلـك أجَّلـتُ موضـوع الـزواج والأطفـال . لعبـةُ الزواج والإنجاب هذه .. شأنُ الكســالى مـن البشــر ، أوْ ـــ في رأيــى الخاص ـ وظيفة الكائن البيولوجــي ، الـذي يُشـغل بتلبيـة احتياجاتـه المادية ، ويتناسى دوره الروحي في الحياة . ثمة فارقٌ كبير بــين الواقــع المادي..والواقع الروحي . كلٌ ما يتصل بعالم الروح هــو الـذي يجعـل الإنسان سامياً في تفكيره ، مثالياً في سلوكه .. ثم وهذا أمر مهم جداً ـ من وجهة نظري الخاصة ـ موظفاً محترمــاً .. يرضـى عنـه رؤسـاؤه ومرؤسُوه ..!

الإنسـان المصـري ــ كمـا أعتقـدُ ــ موظـف موهـوبٌ بـالفطرة والوراثة معـاً .. فهـو ينتمـي إلى أقـدم أمـة عرفـتْ نظـامَ الوظـائف ، وحددتْ مستويات السلم الوظيفي .. منـذ سبعة آلاف سنة . لقـد عرفتْ دولة مصر أعرق بيروقراطية حاكمة في التالريخ ، وكل مجـال وظيفـي .. لـه فلـكٌ معلـوم ومـدارٌ منتظـم ، يُشـبه دورة الأفـلاك والنجـوم ، لذلـك فـإن المصـري موظـف نـاجح ــ لا داخـل وطنـه فحسب ، وإنما في جميـع بـلاد العـالم الـتي ذهـب إليهـا في الشـرق أوْ الغرب . الكل يشهدُ أنه موظف يُعتمد عليه ، لأن الوظيفـة عنـده .. طقـس تعبُّدي . العمـلُ عبـادة .. تحتـاج إلى قـدر مـن الاجتهـاد والمجاهدة .

(1 - 4)

إشارةٌ حمراء ..

في ميدان جامعة القـاهرة .. توقفـتُ عندهـا قليـلاً ، ثـم واصلـتُ المسيرة .

بعـد أن حصلـت علـى الدرجـة الثالثـة استثناءً تزوّجـت بطريقـة بيروقراطيـة أيضـاً . فقـد خطبـتُ ابنـة مديـر إدارة في وزارة التجـارة والتموين . تمتْ إجراءات الزواج سريعاً ، حيث كانتْ عنـدي شـقة كاملة الأثاث في شارع المحطة بالجيزة .. ولم يكـن ينقصهـا إلا زوجـة

صالحة . لم تكن إقبال خطيبتي قد أكملتْ تعليمها الجامعي . طلبتُ من والدها الأستاذ حاتم المنصوري أن تقعد ، وتتفرَّغ للبيت .. فلم يُمانع هو وابنته ، لأن منطقي أعجب الأب ، وأرضى كبرياء الفتاة :

ـ أنا موظف مسئول .. ومرتبي كبير والحمد لله . لستُ رجعياً .. فأنا مؤمن بتعليم المرأة وعملها إذا كانت هناك ضرورة ، لكن عمل المرأة .. لا يُعفيها من شُغل البيت ، حتى لو كانتْ عالمة ذرَّة .!

ـ لكن يا أستاذ إدريس ...

ـ أرجوك يا عمّي .. أريد أن أستريح ، وأريح زوجتي .. حتى تتفرَّغ للبيت والأطفال .

مضت رحلة الحياة ـ بفضل الله ـ منتظمة الإيقاع .. حسنة الخطى . كنت ـ كعادتي ـ متفرغا للعمل .. بل إنني أحضر أحيانا إلى البيت بعض المسائل التي تحتاج إلى بحث خاص . أما أعباء الأسرة فقد تركتها كاملة لزوجتي العزيزة إقبال ، التي أنجبت لي طفلين هما : زينب وزين العابدين . بيني وبينك .. البيوت خسرت كثيرا .. والأبناء خسروا أكثر .. بسبب عمل المرأة . المجتمعات التي تسمح للمرأة بالعمل .. ينبغي أن توفر لها ما يعين على ذلك .. !!

(1 - 5)

وصلت إلى مقر العمل

مبكرا .. كالعادة ، لكن العامل الذي يشرف على صف السيارات .. أخبرني أن الرئيس الجديد أمره ألا يسمح لأحد بالوقوف في هذا المكان . أخذ يعتذر ويكرر أسفه .. سامحك الله يا أستاذ فرج عبد الدايم .. ! أوقفت السيارة ـ لأول مرة ـ في موقف صغار الموظفين . تلك كانت أول صدمة نفسية ، حيث أعامل على أنني رجل عادي .. ولست وكيل وزارة ..!!

صعدتُ إلى الدور الذي توجد به إدارة الشئون المالية والإدارية .. لم يحاول أحدٌ من الذين قابلوني .. أو رأوْني وتجاهلوني أن يلقاني بالترحاب والودَّ اللذيْن كنتُ أجدهما عندهم . يبدو أن الكثيرين تناسوْا ما أحسنتُ به عليهم من إجازات وعلاوات وأجور إضافية . الوحيدة التي قابلتني بحرارة سكرتيرة مكتبي فريدة نظمي .. سيدة أصيلة . ربَّ سيدة أفضلُ من عشرة رجال .

الصدمةُ الثالثة ..

تلقيتها فى الحجرة ذاتها ـ التي كانت مكتبي بالأمس القريب . دخلتُ ـ دون استئذان قابلني الأستاذ فرج ـ الذي كان نائباً لي عدة سنوات ـ ببرود .. وهدوء .. لم أعهْدهما منه قبل اليوم . سلْم عليَّ بأطراف أصابعه ، ولم يرفع عينيه عن الأوراق التي كانت أمامه .

أحياناً .. يرد على التليفون ، أو يطلب موظفاً متعمداً أن يصيح فيه بصوت عالٍ .. ويلومه دون سبب حقيقي - فيما تراءى لي . إيه .. يا دنيا ..! تبادلنا المواقعَ يا أستاذ فرج . طالما جلستَ أنت مكاني .. وكنتُ أنا أجلس مكانك مدة خمس سنوات . يومها كنتَ تتمنّى رضاي .. وتطمع في أن أزكيك لتكون خليفةً لي . كل ما تزرعه تقلعه .. إلا ابن آدم ، فإنه يقلعك بعد أن تزرعه ..!

جئتُ لمساعدته في الأيام الأولى لعمله الجديد .. غير أنه تجاهلني ، وأنكر وجودي ، بل إنه لم يطلبْ لي فنجان قهوة ، لكن الذي جاء به دونّ طلب عامل المكتب .. عم عبده .. الرجل الطيب . أخذتُ أرشفُ فنجان القهوة في هدوء وصمت ، وعيناي تُعانقان أركان حجرة المكتب - التي رتبت كل شيئ فيها بيديّ اللتْين أمسك بهما الطبق وفنجان القهوة . تذكرت في تلك اللحظة القاسية ..

قصة شعبية صينية قديمة تحكي :

رأى عصفورُ صغير أحدَ النمور ، يدورُ حول نفسه حسرةً وغيظاً ، وهو محبوسٌ داخل قفص حديدي ، فسأله متعجباً :

- لماذا تدور حوْل نفسك هكذا .. أيها النمر العظيم ..؟!

فرد ساخراً : إني أكتب .

- تكتبُ .. تكتب ماذا ؟

ـ أكتبُ صفراً .

ـ ولماذا تكتبُ صفراً .. ؟ !

أجاب بسخرية وهو لا يزال يدور : لا زلتَ صغيراً ، عندما تكبر سوف تُدرك أن .. كل شيء بعد أن تفقد سُلطانَك ، يُساوي صفراً ..!!

(1 - 6)

خرجتُ من العمل مهموماً .. حزيناً .. لأول مرة . عندما كنت أخرج كان يصحبني عدد من الموظفين ، والسُّعاة ، وأصحاب المصالح .. بل إن بعض المستشارين عندما يرونني كانوا يتوقفون من أجل السلام والوداع . وداعاً .. يا دنيا الوظيفة .. يا عالمي المفضَّل .. وعُمري الذي انقضى .. ! !

لا أدري كيف قادتني قدمايْ إلى الخارج .. ولا كيف وصلتُ إلى البيت .. ؟ ! تذكرتُ في أثناء سيْري هذه الأبيات التي لا أدري منْ قالها :

تغيَّرت البلادُ ومنْ عليها فوجهُ الأرض مُغْبَرٌ قَبيح
تغيَّر كلُّ ذي لونٍ وطعْمٍ وقَلَّ بشاشةُ الوجهِ الصَّبيح
أرىَ طولَ الحياةِ عليَّ غمَّا فهل أنا من حياتي مُسْتريح ؟

حين وضعت المفتاح

بهدوءٍ في الباب خرجت زوجتي من الحمام .. وقالت بدهشة :
من أين جئت يا أبا زين ؟

- من العمل .

- أنسيتَ يا رجل .. أنك صرتَ على المعاش منذ اليوم ؟

- نسيت أموراً كثيرة .. لكني تذكرتُ اليوم فقط .

- تذكرت ماذا ؟

- لست أدري .. !

- أعدُّ لك كوباً من الينسون .. يهدِّئ أعصابك ؟

- لا أرغب في شيئ .. فقط أريد أن أستريح .

دخلتُ الغرفة .. وأغلقتُ الباب خلفي ......!!

* * *

(2 - 1)

نَ ا مَ .. و .. قَ ا مَ ..

بيْن هذين الفعليْن

حدث موقف آخر .. في حكاية إدريس المصري ، تقومُ بروايته زوجةُ السيدة إقبال حاتم ، حيث إن دوْرها في هذا الجزء أكثر إيجابية ، باعتبارها الشخصية الفاعلة المحركة لفضاء السرد ومسيرة الأحداث . كما أن هذا يعدُّ انعكاساً لإيماننا بقضية المساواة بين الرجل والمرأة .. ! !

(2 - 2)

أ غْ لقَ زوجي العزيز ..

الأستاذ إدريس باب الغرفة على نفسه ، كان يبدو عليه الإحساسُ بالحزن والأسى أكثر من الإرهاق والتعب . أنا ــ مثل كل زوجة حكيمة ــ أعرفُ زوجي جيِّداً .. وأقرأ ما يدور في داخله بوضوح . الزوجةُ الصالحة هي التي تفهم زوجها دونَ أنْ يتكلم ، وتفعل ما يريدُ دون أن يطلب ، حتى تُرضي كبرياءَ الرجولة فيه . المرأةُ الذكية

ينبغي أن تُعامل زوجها على أنه ابنها البكر ..! الحبُّ عطاء .. وإذا أعطيتَ فسوف تأخذ ـ ربما أكثر مما أعطيتَ . البيتُ الآمن ليس برلماناً ، يتحاور فيه حزبُ اليمين وحزب اليسار .. ويبحث كل منهما للآخر عن الأخطاء والعيوب . البيتُ يصبحُ جنةً إذا كان يُدار على أنه منظومة ، تقوم على التعاون والمحبة والتفاهم . أمرٌ جميل .. بل جميل جداً أن مجتمعاتنا الشرقية تُوقّرُ دور الرجل في الحياة .. وبالتالي في البيت . هذه الأبوية لدور الرجل هي التي تُحافظ على كيان الأسرة باعتبارها مؤسسة اجتماعية ، تضمنُ الصحةَ النفسية للأفراد ، والوحدة الوطنية للمجتمع .

انطلاقاً من هذا الوعي الفكري كنتُ أعامل زوجي .. ولم نختلف في أمرٍ ما اختلافاً حاداً منذُ تزوجته من سبع عشرة سنة . العقلُ .. والقلبُ .. إذا اتّحدا شكّلا سيمفونية إنسانية متوازنة .. متناغمة الإيقاع .. ! !

(3 - 2)

تركتُ زوجي ينام ،، كما أراد .. فليس من عادتي أن أناقشه كثيراً ، لأني أدرك تماماً أن خبرته الوظيفية جعلْت منه إنساناً محنّكاً ورجلاً حكيماً . جاء الولدان . كانا فرحيْن ، لأن بابا سوف يتناول معهما الغداءَ اليوم .. وهذا أمرٌ نادرُ الحدوث ، لأنه يتأخر كثيراً في العمل ، لكن الفرحةَ لم تكتملْ ..! كان الحبيبُ المسكين ينام نومةَ

أهل الكهف . طلب كوبَ ماء ، وأمرني ألا أُوقظه حتى يأخذ كفايته من النوم .

بعد أن انتهى اليوم ..

وانتهى ولدانا من مُذاكرة دروسهما — التي هي إحدى مسئولياتي ، التي أؤديها بحبّ والتزام — ذهبتُ إلى السرير . كنت جدُّ متعجبة من استغراق زوجي في النوم هذه الفترة الطويلة التي لم يفعلها طوال حياتنا الزوجية .. حتى في أسبوع العسل . أخذتُ أتحسسُ أنفاسَه ، وأتلمس شرايينه ، خِشيةَ أن يكون قد حدث له مكروه ـ لا قدّر الله . أعرف حقيقة ما يُعاني منه أمثالُ زوجي من الموظفين المخلصين . العمل .. عالمهم المفضل .. ومجالُ إظهار الموهبة .. وميدان إثبات الوجود ، لذلك فإنهم عندما يُحالون إلى المعاش تكون الصدمةُ بالنسبة لهم حادة قاسية ، إذْ يظنون أن دوْرهم انتهى .. وقد يعجزون نتيجة ذلك عن التواؤم النفسي مع الحياة والأحياء .

الأستاذ إدريس .. رئيس قسم الشئون المالية والإدارية — كان يدير شئون مجلس الدولة ـ أعلى هيئة قضائية في مصر مدة طويلة . اليوم أمسى رجلاً عاطلاً ـ لا دوْرَ له ..!! الوظيفة المهنية قد تتوقف يا زوجي العزيز .. لكن الحياة ينبغي أن تستمر ، ويجب أن يجدد المرءُ

حياته ، ويُوجد لنفسه وظائف أخرى . ولدانا صغيران .. وفي حاجة إلى رعايتك وحنانك . كيف أُفْهم سيادة وكيل الوزارة ـــ سابقاً ـــ هذه الحقيقة ؟ !

ظل معظم الليل نائماً يقظان .. فاحترمتُ صمته ، ولم أشأ أن أُخرجه من عزلته ، خاصة وأنا أعرف سرَّ أزمته . ! !

(2 - 4)

جاء صباح جديد ..

بعد أن ذهب زين العابدين وزينب إلى المدرسة .. أصررتُ على أن أبدُو له ـــ كما كنت ليلة عُرسنا . اغتسلتُ .. ومشطت شعري .. وتعطرتُ ، لأن العطور تبعثُ النشوة في الأجساد المرهقة والنفوس المكتئبة . لبستُ قميص نوم أبيض يلائم مزاجه الهادئ . أُوقن أن الرجل طفل كبير .. وأن المرأة الحكيمة تُعامل الزوج على أنه ابنها البكر ، الذي يحتاج دوْماً إلى الرعاية والمودَّة . بعض النساء حمقاوات ، لأنهن ـ بعد الإنجاب ـــ تنصرفُ مشاعرهن كليةً نحو الأبناء ، ويهملن الزوجَ إهمالاً شبه تام ، وينسين أنه مُنجب الأبناء .. ومصدر الأمل والرجاء . لم أكمل تعليمي الجامعي ، لكن الحياة أكبرُ جامعة في الوجود ..!

وضعتُ كوباً من اللبن الساخن على الكمودينــو . احتضنتـه وأنـا أضع يدي اليمنى ـ بحنان ونعومة ـ تحت رقبته :

ـ قم يا أبا زين .. فقد تأخرت .

ردَ .. وهو يتأملني كأنما يراني أول مرة : تأخرتُ على ماذا ؟

ـ على أن تهتم بصحتك .. وتريح نفسك بعد هذا العمر الطويـل من العمــل . كلنـا في حاجـة إليـك .. أولادُك .. وزوجتـك الجميلـة الشابة . قمْ .. اشرب اللبن يا حبيبي ، أطال الله عمرك .

لم أشأ أن أخبره أن بيني وبينه ـ في العمر ـ عشرين سـنة تقريبـاً . لا زلتُ شابة أخطو نحو الأربعين . ورغم أنه ـ مدَّ الله فـى عمـره ـــ بلغ الستين منذ يوميْن ، فإنه رجلٌ محافظ .. لا يدخّن ..لا يشـرب .. لا يسهر .. لا يميل إلى البقـاء خـارج البيـت ، ولا يحـب أن يـزور أو يُزار . ما نحـافظ عليـه في الشـباب ندّخـره للشـيخوخة . صـدق مـن قال : « خُذْ من شبابك لِهرمك ، ومن صحتك لمرضك . »

(2 - 5)

جلس متكئاً على السرير ..

أخذ كوبَ اللبن بيدِ ، ووضع الأخرى على كتفي العريان بحنان . الحزن لا يزال يطل من أعماق عينيه : ذهب الأولاد إلى المدرسة ؟

ـ لم تريد أن تهرب مما أرغب في أن أحدثك عنه ؟

ـ ما هو .. ؟ !

ـ حياتك الجديدة بعد المعاش .

ـ لا تذكريني .. يا حبيبتي ، فقد عبرتُ برزخاً يشبه ما بين الحياة والموت .

ـ كيف ؟

ـ عشتُ مثل السمكة .. لا أرى لي وجوداً خارج بحر الوظيفة ، لذلك ذهبتُ إلى المجلس أمس .. وعدتُ حزيناً .. أسفاً . ليتني ما ذهبت .. !

ـ إنسان عاقل مثلك لا ينبغى أن يفكر في الأمس ، وإنما في اليوم والغدّ ، يا روحي أنا ..!

ـ انقشعتْ عن عيني غشاوة .. وأفقتُ من كابوس مُرعب .

ـ الحمد لله .. الأملُ يجعل الحياة بعد الستين تبدأ من جديد ، بداية جميلة كلها حرية وانطلاق . الأمل مثل الكرة ، كلما اقترب ينبغي أن نقذفه بعيداً .. حتى نجري نحوه من جديد . الحياة من غير أمل .. شقاء وعذاب يا أبا زين ..!

ـ لم أكن أعرف أن زوجتي العزيزة فيلسوفة .

ـ لا فلسفة .. ولا هندسة .. المهم أن تعرف حقيقة نفسك .. وكيف تتصرف التصرف المناسب في الوقت المناسب . !

ـ شربتِ شيئا يا حبيبتى ؟ !

ـ نعم .

(رسالة إلى معالى الوزير)

ـ ماذا ؟

ـ شربت حبا .. يا حبيبي .

ـ أنت زوجة رائعة .. أكرمني الله بها بفضل دعاء والديَّ .

ـ ماذا تنوي أن تفعل ؟

ـ بُعثت اليوم إنسانا آخر .. بفضل حبك ورعايتك .

ـ لا تهرب من السؤال .

ـ لقد قصرت في حق أهلي في القرية .. حتى قطعة الأرض التي ورثتها لا أعرف مصيرها . أخي إبراهيم .. هو الذي يزرعها ويعرف كل شيئ عنها .

ـ ماذا أنت فاعل بها ؟

ـ لابد من العودة إلى الجذور .. لذلك سأبني بيتا في القرية ، حتى يشعر أولادنا بالانتماء الحقيقي للأرض التي ولد أبوهما في ظلها .

ـ لابد أن تزرع حول البيت حديقة .

ـ وشجرة توت ، لأني أحب هذا النوع من الشجر .

ـ أطال الله عمرك ، حتى تثمر كل أشجار الحديقة ، حتى شجرة التوت .

قال وهو يضمها إليه في مودة : وكل واحد يأخذ توتة .

ردت مبتسمة : توتة .. توتة .. وما فرغت الحدوتة ..... !![*]

* * *

(*) مكة المكرمة ـ الجمعة ١٧ سبتمبر ١٩٩٩ .

أمـــيرة ..
فى القلـــب

أمـــ يرة ..

فتاة من نوع خاص ..

ترى أن الحب سبيل الخلاص من أوجاع عصر موبوء ، لكن .. الحب الذي تؤمن به حب من نوع خاص جداً ، حب يطهر المشاعر ، ويدفع إلى التضحية من أجل المبادئ .. والأهداف النبيلة .

إلى القاهرة .. جاءتْ تدرس اللغة العربية وآدابها . كانت صبية مشتتة .. خائفة .. تترقب . أبوها حسن سلمان .. فلسطيني من الضفة الغربية لنهر الأردن الحزين ، يعمل محاسباً في مدينة جدة ، وأمها معلمة في مدرسة خاصة . يعملان معاً .. من أجل رعاية نصف دستة من الأطفال . تغربتْ أسرتُها عن الوطن .. وتغربتْ هي عن الأسرة . عاشتْ سنوات الدراسة في دار للمغتربات ملحقة بأحد الأديرة . ما كان ينبغي لفتاة وحيدة أن تُشغل بغيْر الهدف الذي تغرّبتْ من أجله ، حتى الزميلات كانتْ علاقتها بهنّ محدودة . لا تزال تذكر وصية الأب عندما تركها ــ وحدها ــ لأول مرة :

ــ لم تعودي صغيرة يا ابنتي . أنت هنا من أجل هدفٍ محدد .. كُوني فتاة جادة مثل أمك سحر أبو زياد .

ـ ومثلك أيضاً يا أبي .

ـ أنتِ فلسطينية .. والفلسطيني يحمل روحه بين يديْه . اللعب حلالٌ على أهل الدنيا جميعاً ، أما نحن فلا ...

اغرورقتْ عيناه بالدموع . اقتربتْ بكل شوق المولود إلى الوالد :

ـ سافر في أمان الكريم .. الله معك . ابنتك بمائة رجل يا أبي ..!

عاشت وحدها ...

لم تستجب لدعوة زميلة أو زميل . المجاهد ليس في حياته مجالٌ للهو أو التسلية . تملكُ رؤية حادة مثل زرقاء اليمامة . ذات قدّ غُصن بان .. وجه بدريٌ مضيء .. شعرٌ فاحم ناعم ، يختالُ في ضفيرة خلف ظهرها . لا تميلُ إلى الملابس العريانة . اللؤلؤة تُحفظ في صَدفةٍ صلبة ، ترقد في بحر عميق .

هاني محمود ..

الزميل الوحيد الذي جذب انتباهها ، وحرّك فُضولها . شاب فقير .. جاد .. ملتزم ، يؤمن ـ مثلها ـ بالعروبة والعربية . العربُ خير أمة .. لو توحدوا .. وفطنوا إلى أهمية مكانهم ومكانتهم . يعتقد أن هناك سكاكين خفيّة وظاهرة تُقطّع أوْصال الأمة ، فصارتْ أقطارها مثالاً صارخاً للإخوة الأعداء .. ! !

يا عرب .. لماذا نسيتم رحمة يسوع .. وعفّةَ مريم .. وحكمة محمد .. وفراسة عمر .. وشجاعة عليّ .. وفطنة صلاح الدين ..؟ !

بين المحاضرات والندوات كانا يقضيان معظم أوقات اللقاء . لم يحدث بينهما ـ من قريب أوْ بعيد ـ أيَّ موقفٍ من مواقف الشجون العاطفية التي قد تحدث بين شاب وفتاة . حوارهما المتواصل حول قضايا السياسة والفكر والثقافة . بينهما توافقٌ يصل إلى حدٌ التطابق في الأفكار والقيم والسلوك المسئول . يؤمنان بوحدة الأمة وضرورة أن تزول الحواجز والحدود التي صنعها الاستعمار ، وصدَّقها كثير من الحكام والشعوب . الاستعمار خرج من باب واحد .. ودخل من نوافذ عديدة . لا تزالُ أصابعُه القذرة تعيثُ في الأرض المباركة فساداً ومصَّ دماء . شعوبنا المقمُوعة .. ضَلت أوْ ضُللتْ ، لأنها بُعدتْ عن طريق الحقِ والحبّ .. والوحدة .

الفرحة الكبرى ..

يوم ظهور نتيجة الليسانس . هو الأول .. وهي الثانية : النجاح ـ لا يدرى هو .. ولا تدري هي ـ سيكون نهاية .. أم بداية ؟ الحياة أخذ وعطاء .. وهي إذْ تعطي شيئاً ، تأخذُ أشياء . الوعي بالاستراتيجية ضروري .. حتى تُحسن تحديد مراحل التكتيك .

ـ ماذا ستعملين .. يا أميرة ؟

ـ أبحثُ عن لقمة عيش في أيّ مكان .. أجد فيه فرصة عمل .

ـ هناك أمر آخر .

ـ ما هو .. ؟ !

ـ لن أقول أحبك .. فما بيْننا أكبر من أيّ حب .

ـ أنت فقير .. وأنا مشرّدة .

ـ الإيمانُ يصنعُ المعجزات .

ـ لا أظن أهلي يوافقون .

ـ أسألكِ أنتِ .

ـ لا تزال هناك أمور في تقاليدنا العربية ، لا تقدر الفتاة أن تأخذ فيها قراراً وحدها .

نظر إليها .. وهو يتأمل قدّها الضامر .. وتعارض سواد الشعر مع بياض الوجه :

ـ أميرة .. لا تقول هذا ..!

ـ لأنك تعرفني جيّداً .. لا أظنك تنتظر إجابة غير هذه .. !

نظرتْ بعيداً في حديقة الجامعة ، حتى لا يرى دموعاً تتجمّد في عيْنيها .

ـ زواجنا .. سيكون زواجاً أيديولوجيا .

ـ ماذا تعني ؟

ـ خطوة في سبيل تحقيق الوحدة .

ـ حلم بعيد المنال .. يا هاني .
ـ الآمالُ النبيلة لا تتحقق على طبقٍ من فضَّة .. يا أميرة .

شعاع من الضوء ..

لاح فجأة ، وأنبت قدراً من التفاؤل . عُيِّن هاني معيداً . معظم الأساتذة معجبون به ، وينتظرون له مستقبلاً علمياً مُشرقاً . بل إن واحداً منهم تدخّل في اللحظات الحرجة من أجل إقناع أهل أميرة بالزواج . حضر الأب حسن سلمان مع الأسرة من جدة إلى القاهرة لقضاء إجازة الصيف . تقدّم هاني .. لكن أمها رفضتْ بإصرار وعناد : يا عيب الشوم بنتنا البكرية الناصحة .. نزوّجها من رجل غريب .. مستحيل .. ! !

بعد أخذ وردّ .. وافق الأب :

ـ سأعطيك قطعة منّي .. وأتركها أمانةً عندك . كنْ لها الأب والأخ قبل الزوج والحبيب .

ـ سأضعها في عيني .. وأسكنها في قلبي .
ـ لي شرطٌ واحد .. لن أتنازل عنه .
ـ ما هو يا عمي ؟
ـ لابد أن تسكنا في شقة مستقلة .. بعيدًا عن أهلك .
ـ لكن شقتنا كبيرة .

ـ حتى لو كانت لك شقة في البيْت الذي يسْكنه أهلك . هذا شرطي الوحيد .. سوف أدفع نصفَ التكاليف .

ـ لا أريد أن أحمّلك عِبْئاً يا عمي .

ـ هذا حق ابنتي عليَّ .. أنت لا تزال في أول الطريق .

المعلم خلف خلاّف .. مقاول صعيدي شاطر ، محترف بناء عمارات تمليك وبيْعها . يبيعُ الشقق بمهارة مثلما يسحب أنفاس الجوزة . أرخص شقة عنده كانت في الدور السابع الأخير . السلم طويل .. لكنها بداية مشجعة . شيئاً فشيئاً تبني العصافير عشها .

الطلوع إلى الدور السابع عشرُ مرات .. أسهل من توثيق العقد في إدارة زواج الأجانب . استمارات من وزارة العدل والداخلية .. ورق دمغة .. أختام .. شهود .. بطاقات . عقدُ زواج .. أم بروتوكول معاهدة مع دولة أجنبية .. يا معالي الوزير .. ؟ !

ليلة عرس أميرة ..

تمتْ في جلسة أسرية في منزل هاني . أحد الزملاء أخذ يُغنّي على إيقاع الطلبة والتصفيق بالأيدي :

يا اللّي غويتْ النسبْ   مهرك لازمْ يكونْ ويَّاكْ
يا اللي غَويت النسب   سِيبَكْ من الأمْلاكْ
دوَّرْ عَ الأصيلهْ تُصبرْ   على طُولِ الزمانْ ويَّاك

وعَ الأصـــــــــل دوَّرْ يـــا اللـــي غَويـــت النســـبْ

بعد منتصف ليلة أحد حزين ..

جمعتهما الشقة التي دفع فيها الأبوان الكثير .. والكثير . بعد أن خلعتْ أميرة ملابسها شعرتْ أن الشقة ضيِّقة .. ضيِّقة : أحسُّ صداعاً يفلق رأسي .

قال وهو يقبل جبينها لأول مرة : رأسك الجميلة .. لا تتحمل فرحة اللقاء .

ـ خائفة .. خائفة من شئ ما .

ـ فتاة تقدمية مثلك تقول هذا .. في مثل هذه الليلة ؟ !

ـ أحس انقباضا شديدا .

ـ فكرك تقدمي يا حبيبتي ، لكن سلوكك لم يتخلص من تردد الرجعية .

ـ هاني ..

ـ يا روح هاني ..

ـ لابد أن ننزل الآن .. أرجوك .. من أجل خاطري .

ـ هذه الليلة كانت حلما .

ـ كابوس يخنق أنفاسي .. بسرعة أرجوك .

الشقة تقع في إحدى الحارات الشعبية المتفرعة من شارع الملك فيصل . ركبا التاكسي .. ذهبا إلى كازينو متواضع على شط النيل في الجيزة . أمسك يدها الباردة ، وهو يتأمل وجهها الرقيق :

ـ معظم الناس يستعدون للعودة ، ونحن نستعد لبداية السهرة .

ـ لا تكن ديكتاتورا من أول ليلة يا حبيبي .

ـ انسى كلام السياسة في ليلة العرس .

ـ هذه سياسة شهر العسل .. يا زوجي العزيز اللذيذ ..!

أخذ يثرثران في أمور مبعثرة . ضحكا كثيرا .. وبكت قليلا . لم تكن تدري هل اختارت الطريق الصحيح .. أم لا ..؟ ! أمها ظلت حتى اللحظات الأخيرة ترفض فكرة زواجها من رجل غريب عن كل الأقارب والمعارف . أبوها نصف رافض .. ونصف موافق . لماذا كل هذا .. أيُّ ذنْبٍ في أنْ تتزوج فلسطينية مصرياً .. ؟ ! كثير من الأنبياء تزوّجوا من مصر .. سيدنا إبراهيم .. سيدنا محمد عليهما السلام . اطمأنتْ نفسها حين استقرت عند هذه الفكرة السامية .

ـ تسرحين .. وأنا معك .. في أول ليلة ؟ !

ـ تحمَّلني حتى أجتاز هذه المرحلة الصعبة .

ـ أنتِ رائعةٌ .. يا قمر حياتي .

ـ هذه مناسبة تاريخية .

ـ ماذا تريدين ؟

ـ نمشي إلى بيتنا خطوةً .. خُطوة ، حتى لا ننسى ليلة الوحدة .

ـ تقصدين ليلة الدخلة .

ـ سمِّها ما شئتَ .. !

في الطريق أكلا سندوتشات فول وطعمية .. ألذّ من الأطعمة الدسمة التي أعدتها الأم . اشترى جرائد اليوم التالي ..

ـ لماذا كل هذه الصحف .. ألا تكفي واحدة ؟

ـ هذا بالنسبة للزواج فقط .. يا حبيبتي .

يمشيان مثل الأطفال .. ويضحكان مثل المجانين . حركة الشارع غير هادئة ، لكنهما كانا في قمة الفرحة والسعادة والتفاؤل . أخيراً .. وصلا إلى البيت ـ بعد ليلة مليئة بالمفاجآت . هناك حركة غير عادية .. صراخ .. فوضى . عربات شرطة وإسعاف ومطافئ .. ناسٌ من مختلف الأعمار ، وقفوا متفرِّقين .. يتفرجون ... !

شيئًا .. فشيئًا ..

بدت لهما الحقيقة المرّة . عمارة المعلم خلف خلاّف انهارتْ على كل من كان فيها من السكان ، واختفى مثل حَصْوة ملح تذوبُ في بحر أسود . بكيا .. بكيا طويلاً من أجل المساكين الذين ماتوا تحت الأنقاض ، ومعظمهم متزوجون حديثاً مثلهما . بصق على الأرض ، وهو يسندُ ظهره إلى الحائط : لعناتُ الرجعية تطارد الأشراف .

قالت والدموع تتساقط من عينيها :

ــ صاحب العمارة ليس رجعياً أوْ لصاً فحسب .. إنه خائن يستحق القتل .

صاحب البيت .. المهندس .. المقاول .. مجلس الحيّ .. المحافظ .. الكل مسئول ، لكن من يضع الجرس في رقبة القطة ..؟! تأمل فضاء تراجيديا الأخطاء .. الناس يتفرجون .. ولا يبالون . الظلم .. الذل .. الجوع .. جعلهم كائناتٍ مغتربة .. عاجزة عن المبادرة . تلك ليلة تعدل العمر . بدأتْ بفرحة .. وانتهتْ بمأساة . لولا قلب أميرة الملائكي ...

نظر إليها في خوفٍ وحبّ ، وهو وهو يضع يده اليمنى على كتفها ، حتى يُثبِّتَ فؤادها :

ــ أنت قديسة يا حبيبتي .

ــ أنا امرأة أحبتْ ..!(*)

(*) مكة المكرمة ــ السبت ٤ سبتمبر ١٩٩٩ .

الاتجاه المعاكس

(1)

في ل يْلة ..

من ليالي الصيف ، التي تجمع بين الحرارة والرطوبة والجنون .. أخذ رشفة من زجاجة البيرة ، وهو يضغط بقوة على دوَّاسة البنزين ، ويغنّي بصوت متقطع :

الدنيـا ربيـعْ ، والجـو بديـعْ قَفّـل لي على كـل المواضيـعْ

قال هشام وهـو يقـدم سيجارة مشـتعلة : لمـاذا أنـت متعجـل يـا مجدي ؟

ـ سوسو وفيفي وميمي ونُوجا .. معهـم حمـادة وسمسـم وبلبـل ، ينتظروننا في كازينو العش الهادئ .

السيارة القادمة من ناحية مصر الجديدة .. بدأتْ تشق طريقها إلى كوبرى أكتوبر . زادتْ حرارةُ الجوِّ مـن الإحسـاس بالزحـام ، كأنمـا خرج معظمُ سكان القاهرة من منازلهم .. بحثاً عن نسمة هواء .

ـ هَدِّ السرعة يا جميل .. الدنيا زحمة .

ـ ما دمتَ تركب سيارة بابا الفولفو ، فاعرفْ أنك في أمان .

ـ لكنك تسوقُ دون رخصة قيادة .

ـ الذي أبوه في مركز أبي ، ليس في حاجة حتى إلى بطاقة شخصية .

ـ يا سلام .. يا ولد يا جوجو .

ـ أسرتنا كلها باشوات ، حتى جدتي كانوا يقولون لها .. الجدة باشا .

ـ تعجبني يا باشا .. لكن خففْ السرعة .

ـ منذ أسبوع لم أرقص .. تصور .. وسطي أصابه الصدأ .

ـ لأن وسطك من الوسط الفني .. يا باشا .

مراهقان في عمر الزهور ، مثل خضراء الدِّمَن .. وردة جميلة نشأتْ في زريبة مليئة بالروث . أبواهما يكسبان من المشروع والممنوع .. في الليل والنهار . وظائف مهمة ، ومشروعات كبيرة ، لذلك يأخذان ما يطلبان ، ويفعلان ما يريدان . زجاج السيارة مُغْلَق . التكييف والبيرة ودخان السجائر وصوت المسجل .. كل ذلك جعلهما في عالم آخر بعيد عن الزحام ، الذي ينوءُ به الكوبري الكبير الذي يربط بين القاهرة والجيزة .

ـ متأكد أن نُوجا ستكون في الكازينو ؟

ـ لم تسأل عن نجوى بالذات ؟

ـ قمر .. لا ..مارُون جلاسيه .. تمثال من القشدة ..!!

ـ لا تعجبني إلا فيفي ، سوف آخذها ونقضي ليلة جميلة .. في شاليه العجمي بالاسكندرية .

ـ عجمي .. يا عَجبي يا ابن الإيه ..!!

ـ يا سلام يا شوشو .. صدق من قال : الدنيا امرأة وكأس .

ـ الذي قال .. قال .. الدنيا سيجارة وكأس .

ـ المهم الكأس ، لذلك يقولون .. الإنسان حيوان سكران .

ـ لا .. الإنسان حيوان مسطول يا باشا . سمعتَ هذه النكتة ؟

ـ نكتة .. قُل .. قلْها بسرعة ، لم أضْحك من قلبي منذُ زمان .

ـ واحد سكران سأل واحد مسطول : الحشيش حرام أم حلال ؟ فردّ عليه : إنْ كان حراماً فنحن نحرقه ، وإنْ كان حلالاً فنحن نشربه ..!

ها ها .. ها ها .. ها ها .. ها ها ..

مضتْ سيارة الفولفو المكيَّفة محاولة أن تتجاوز كل سيارة تمرّ أمامها .. من أجل عيون نوجا وفيفي . صاح مجدي منتشياً .. وهو يوقّع بأصابعه على عجلة القيادة :

أوَّلْ ما شُفتكْ يا فيفي بسُرْعَةْ جِيتي على كِيفي

أخذ يكرران معاً : يا فيفي آه .. آه .. على كيفي آه .. آه .. آه ...

(2)

بدت السيارة فيات ١٢٨ مثل علبة سردين ، انحشرَ فيها معظم أفراد عائلة الأستاذ نديم عبد السيد . يحاول ـ بصعوبة ـ أن يُشغِّل العربة القديمة التي لا يستعملها إلا عند الضرورة . أمه العجوز حالتها الصحية متأخرة . المسافة بعيدة بين الجيزة ودير الملاك . جلست الزوجة بجواره في الكرسي الأمامي . في الكرسي الخلفي جلستْ بناته الثلاث ومعهن الطفل الصغير سمير ـ آخر العنقود . الولدان الكبيران رفضا الذهاب .. بحجة أنه لا يُوجد لهما مكان في السيارة ، وأن الجدة العزيزة صار لها ثلاثة أعوام على هذه الحالة من المرض والعجز .. لا تُشفى .. ولا تموت . يبدو أن الموت .. لا يقبضُ أرواح الفقراء بسهولة .. ! !

العربة قديمة .. تحمل حمولة ثقيلة ، لذلك كانت تتجاوزها كل السيارات الأخرى ، رغم هذا بدت الزوجة مريم سعيدة ، تملأ الكرسي في فرحة وكبرياء ، كأنها الملكة فيكتوريا في عصور مجد المملكة المتحدة . حين تجلسُ بجوار زوجها تتعمد أن تبحث عن أيّ جارة في الحارة ، وتسلم عليها ـ من بعيد أو قريب ـ بحرارة ، حتى

يعرف من لا يعرف .. أنها تركبُ سيارة مع البيه جوزها الأستاذ نديم .. الموظف بأرشيف وزارة الزراعة .

بينما السيارة تشق طريقها بصعوبة نحو كوبري السادس من أكتوبر ، تساءل سمير في براءة : لماذا لا تشتري سيارة كبيرة مثل الأتوبيس يا بابا ، حتى نركب فيها كلنا ؟ !

ـ إن شاء الله يا حبيبي .

صعدت السيارة الكوبري .. في الزحام والظلام والأضواء التي تُزغلل العيون . السيارة قديمة .. في حاجة إلى من يجرّها .. لا إلى من يقودها . لكن السيارة العرجاء تُغني عن التاكسي ومشاكله . السيارات على الجانبيْن مسرعة كأنها في سباق شيطاني . رطوبة الجو .. وشدة الزحام جعلت الأستاذ نديم يمسك عجلة القيادة بإحكام ، وهو يدعو الله في سِّره ألا تتعطل السيارة ــ كالعادة . الناس يسيرون قريبين بعيدين ، مجتمعين متفرقين ، أشباحٌ متحركة ، وجزر مُتباعدة . لا أحدَ يهتم بما يدور حوله .. المهم أن يجد له طريقاً في الزحام . هذا الزحامُ لا أحد . الناس سكارى .. حيارى .. غرباء .. تعساء ..!

انتشلته من خواطره البعيدة ابنته الكبرى سهام : بسرعة يا بابا .. أنا خائفة على جدتي .

رد الأب المسكين الذي يعرف إمكانات سيارته القديمة ـــ دون أن يلتفت إليها :

ـ في التأنّي السلامة يا ابنتي .

قالت الزوجة في هدوء : ربنا يطمئنا عليها .. قادر يا كريم .

(3)

ـ تأخرنا يا جوجو .

ـ اطمئن .. أنت تركب فولفو .

أخذ يسرع .. يسرعُ وهو يحاول أن يتجاوز السيارات الأخرى من اليمين أوْ اليسار . حاول أن يأتي من اليمين إلى أقصى اليسار .. بجوار الرصيف الذي يفْصل بين الاتجاهين . انحرفتْ السيارة بسرعةُ مفاجئة ناحية اليسار ، فاصطدمت بسيارة أخرى من الخلف . الصدمة .. ورأسه المخدَّرة جعلتاه يفقد القدرة على التوازن . بدلاً من أن يضغط على الفرامل حتى يوقف السيارة ، ضغط ـــ بحركة لا إرادية ـ على دوَّاسة البنزين . انطلقتْ السيارة بسرعة صاروخ أرض ـــ أرض . تجاوزتْ الرصيف الذي يفصْلُ بين الاتجاهين ، واصطدمت بسيارة الأستاذ نديم عبد السيد ، واستقرتْ فوقها مثلما

يجثمُ فيل ضخم على أرنب ضعيف . تحطمتْ سيارة الفيات .. وأمسى أعلاها أسفلها ، وتكسّرتْ العظام ، وسالت الدماء .....

(4)

لم يكن على الكوبري العظيم لحظة وقوع الحادث رجل من الشرطة أو المرور ، ولم يُحاول بعضُ الذين يملكون التليفون المحمول إبلاغ بوليس النجدة .... (*)

(*) مكة ـ المكرمة ـ السبت ٤ سبتمبر ١٩٩٩ .

طبق فول

بَ د أتْ

سمشُ الصباح .. تفرشُ أسفلت شارع الهرم . قطراتُ ندى متفرّقة تتساقط ، فتحدث برودةً مُنعشة . عدد السيارات المسرعة أكثر من المشاة المبعْثرين هنا .. وهناك . لم يعبأ العجوز ـ وهو يحاول أن يعبر الشارع ـ بحركة السيارات أوْ مسيرة المشاة .. الذين يتداخلون في ملابسهم ، ولا يزال طعمُ النوم يداعبُ جفونهم ، ولسْع البرد يصافح أجسادهم . يبدو سعيداً ، وهو يحملُ طبقاً ساخناً ، تبعث حرارته قدراً من الدفء في يديْه . قرَّبَ الطبق من فتحتْي أنفه ، فتصاعد بُخار الفول الساخن إلى وجهه . أخذ يسْتنشقُ رائحة الفول ، وهو يُمنّي نفسه بوجبة إفطار شهية مع زوجته وأولاده في صباح بارد .

ـ الفول الذي وضعتَه في الطبق .. لا يُساوي الجنيه الصحيح الذي أخذْته .. ! !

ـ الجنيه .. لم يعدْ يُساوي شيئاً ...!

ـ لكن الجنيه جنيه .

نظر إليه صاحب مطعم الفول والطعمية نظرةً تجمعُ بين الرثاء والاستهزاء . ليس من عادته أن يُفاصِل ، لكن .. هذا أول زبون ، والزبون الأول قد يجعل اليوم كله سعْداً .. أوْ نحْساً . تأمل جسده الهزيل يتُوهُ وسط جلباب واسع . تهدَّل شاربُه ـ الذي غزاه الشيْب ـ وسط وجهٍ مُرهق شاحب . همَّ بأن يطرده ، لكن هيئته الفقيرة جعلتْه يتراجع . فتح الدرجَ وأخرج الجنيه ، أعاده إليه .. وهو يتحاشى أنْ تلتقي العيون ...

ـ خُذْ الجنيه والفول .

عزّتْ على الرجل المسكين نفسه . قال وهو يُغلق زرار الجلباب العلوي : أنا فقير ، لكنّي غير شحاذ .

ـ ماذا أعمل لك .. ؟ !

ـ تأخذ الجنيه ، وتزيد الفول .

أخذ صاحب المطعم الطبق ، لكنه لم يزدْ الفول ، وإنما زاد الماء بحركة سريعة .. وأعاد إليه الطبق في صمت .

خرج من المطعم .. وهو يحمل الطبق العظيم سعيداً ، لأنه صَمَدَ أمامَ البائع . هذا عصرُ التُجّار والشطّار .. لكنه رجلٌ مجرِّب . إنه فقير .. وأميٌّ .. غير أن الحياة هي الجامعةُ الكبرى . زوجته الطيبة نفيسة .. ستجعلُ من هذا الطبق وجبة ألذّ من لحم خروف العيد . سوف تَقْلي بعض فصُوص من الثوم في الزيت ، ثم تضع عليها بعض

قطع من الطماطم والبقدونس .. بعد ذلك تضع الفول ، ثـم تضيـف إليه بعض الكمون والفلفل الأسود وقليلاً من الشطة . رائحـةُ الفـول والثوم المحّمرِ والقوطـة .. سـوف تعبـقُ جوَّ البيـت برائحـة جذّابـة . الأولاد ـ بارك الله فيهـم ـ سيتسـابقون في أكـل الفـول والجرجـير والخبز البلدي .. قبل أن يذهـب كـل منهـم إلى عملـه أوْ مدرسـته . أهمُّ شئ تبدأ به عملك .. هو الفطور ، تلك نصيحـة والـده .. رحمـةُ الله عليه . تذكر أنه لم يذهبْ إلى القرية منـذ مـدة طويلـة .. ولم يـزرْ قبر والده . الولد سرُّ أبيه ، وهو بارٌ بأولاده مثل أبيه .

لم يحـاول أن يلتفـت يسـاراً أو يميناً . الحركـة لا تـزالُ وليـدةً في الشارع الكبير ـ شارع الهرم . تعَّجب ـ ورائحة الفـول تمـلأ فتحـتيْ أنفه ـ من كثرة السيارات القادمة من ناحية الأهرامات . ماذا يفعـل أصحاب هذه السيارات المسرعة ، ومن أيـن جـاءوا في هـذا الصبـاح المبكّر .. ؟ ! لم يستطع ذات مرة أن يُجاري ابنه الكبير فتحي ، الذي يعمل صبي ميكانيكي :

ـ نحن نسكن في حواري شارع الهرم ، لكننا غرباء عنه .

ـ كيف .. ونحن نسكنُ هنا منذ عشرين سنة .. ؟ !

ـ الدنيا تغيَّرتْ يا بابا .. لن تصدِّق .. !

ـ أصدق ماذا .. ؟

ـ رجلٌ صاحبُ عربة مرسيدس قال .. نحن نستورد عُلب الفول وعجينة الطعمية من بلاد الأمريكان .

ـ الفول الصعيدي هو الأصل .. هو الفول الحقيقي يا ولد يا فتحي .

ابتسم في داخله ، لأن ولده بدأ يعرفُ الدنيا .. يقول كلاماً لا يستطيع ـ أحياناً ـ أنْ يفهمه . لكنه صبّي ذكي . صاحب الورشة معجبٌ به ، ووعده بأن يبحث له عن عمل في الخارج ، ويأخذ راتبه بالدولار .

ـ الدولار غير الجنيه .. إنه كنز على بابا .

ـ من على بابا هذا .. يا ولد يا فتحي ؟

ـ أول من اكتشف الدولار ... يا بابا .

أيقظه من شطحاته صوتُ عربة كارو .

أرجلُ الحصان .. تُحدثُ صوتاً موقّعًا على أرض الشارع . صاحبُ العربة يمسكُ اللجامَ بإحكام ، وهو يسير قربَ الرصيف بعيداً عن السيارات المسرعة . كان يُغنّي بصوت مجروح على إيقاع سنابك الحصان :

إللي مضيَّع دهبْ في سُوق الدهبْ يلقاه
واللي مفارقْ مُحبّ يِمكن سنه ويلقاه

بـسَّ اللـــي مضيَّـــعْ وطـــنْ   فـــين الوطـــنْ يلقـــاه

انتظر حتى مرت العربة وصاحبها .. بعد أن أحدثَ الموّال الحزين قدراً من الانقباض داخل صدره . أمسك طبق الفول بإحكام استعداداً للعبور نحو الحيِّ الشعبي الذي يسكن فيه .

لم يكن يعنيه النظر إلى الشارع في مثل هذا الصباح المبكر .. بقدر ما كان يهمه أن يُحلق في الطبق الممتلئ ، حتى لا تسقط منه حبَّة فول أو قطرة ماء . مضى علي شعْبان ـ فراشُ أبلة الناظرة في مدرسة مكارم الأخلاق الابتدائية ، التي تغيّر اسمها .. وتحوّل إلى مدرسة جيهان السادات ، مضى مزهواً .. كأنما يحملُ زُمردةَ السندباد .

تجاوز الرصيف بخطوات ، وأصبح وسط الشارع الذي عبره مئات .. بل آلاف المرّات ، حتى صار يعرفُ طبيعة كل شِبْر فيه . أخذ يغذُّ السيْرَ ، وهو يتخيل أسرته في انتظار طبق الفول اليوْمي . الفول في الصبح فطور الأمير .. وفي الظهر غداء الفقير .. وفي الليل عشاءُ الحمير . وهو لا يأكل وأسرته الفول ـ في الغالب ـ إلا في الصباح . أحسَّ قدراً من السعادة .. حين ظنَّ أنه يشتركُ مع الأمراء في عادة أكل الفول صباحاً . ابتسم لهذا الخاطر الذي سوف يقوله ـ اليوم ـ لأبنائه في أثناء تناول الفطور .

فجأة .. ظهرتْ سيارة مسرعة ..

واصطدمتْ بالعجوز في وسط الشارع . قوةُ الصدمة المباغتة جعلتْه يرتفعُ في الهواء ، ثم يهوي — في لمح البرق — وهو يرقصُ مذبوحاً من شدة الصدمة . سالتْ الدماء .. انكسر الطبقُ .. تباعدتْ حباتُ الفول هنا وهناك .

لم تتوقف السيارة المجنونة .. اختفتْ كأنما انشقتْ الأرضُ وابتلعتها . طاقية الإخفاء حَجبتْ الفاعل المجهول .. وأداة الجريمة .

بدأ بعضُ السائرين يتجمعون في مكان الحادث .

قال رجل ذُو لحية كثيفة ، وهو لا يقوى على رؤية الجسد الجريح الذي ينزف : اللهم .. لا نسألك ردَّ القضاء ، بل نسألك اللطف فيه.

صاح رجل قصير ممتلئ : اتصلوا بالإسعاف قبل أن يموت المسكين .

نزل رجل ضخم من سيارة زرقاء ، وتأمَّل الواقفين نياماً ، وصاح فيهم : تتفرجون دائماً .. ولا تفعلون شيئاً .. !

ثم مضى في طريقه .. دونَ أنْ يفعلَ هو الآخر شيئاً .

طلب أحد المشاهدين من جارٍ له أن يُعطيه جريدة ، كانت فى يده ، حتى يُغطى الأجزاء العريانة من الجسدِ الجريح ، فأعطاه إيّاها دون أن يُعلّق .

رقد الجسدُ الجريح
على الأسفلت ، وسالتْ الدماء من أعضائه . انكسر الطبق .. وتناثرت حبَّاتُ الفول هنا .. وهناك . اختلطتْ أعضاءُ الجسد الجريح بأجزاء الطبق المحطَّم وحباتُ الفول بماء الفول . الذين تجمّعوا فى مكانِ الحادث .. كلّ منهم كان يقفُ لحظة ثم يمضى . لم يلتفتْ أحدٌ إلى التليفون المحمول ، الذى استقرَّ فوق بقايا طبق الفول ...(*)

(*) مكة المكرمة ـ الاثنين ٢ أغسطس ١٩٩٩ .

الغزلان الصغيرة ..
تُحدث ضجيجًا

١ ـ من مكمنه في غرفته ، يرقبُ من بعيد زوجته ، تلك هي الزوجة الثانية .. بعد أن تُوفيتْ أم العيال ـ رحمها الله . سناء كانتْ الودود الولود .. ما قالتْ له (لا) .. يومًا . أما رجاء .. فهي صاخبة مثل رياح أمشير ، أحيانًا قليلة .. تكون هادئة مثلَ نَسيم الخريف .

اليوم ـ يوم غسيل الملابس ـ لكنها تُمارس في الوقت نفسه عملية الطبيخ ، وتنظيف بعض حجرات الشقة . امرأة عفية وطيبة .. أنعمَ الله عليه بها بعد أن صار وحيداً . دخلتْ عليه بقميص أخْضر شفّاف ، ابتلّتْ بعض أجزائه الوسطى والتصقت بمنطقة البطن . امرأة مُرتوية .. كأنما لا عظمَ فيها . بدتْ مثل ريم الفلا الآمن ، وهي تُقدّم له كوباً من الشاي الساخن :

ـ تعبتُ من الغسّالة العادية .. لم لا تشتري واحدة أوتوماتيك ؟

ـ المرحومة كانت تغسل في طست .

ـ كل وقت وله آذان يا حاج .

اتجهتْ ناحية الحمام .. وهي تغنّي في دلال :

وعايزنا نرجعْ زيّ زمانْ   قُلْ للزمان ارجعْ يا زمانْ
وهاتْ لي قلبْ لا دابْ ولا حَبْ   ولا انجرحْ ولا شافْ حِرمانْ

* * *

٢ ـ تعب كثيراً .. حتى يُقنع بعض أولاده وأصدقائه بضرورة الزواج . اجتمع الأولادُ كي ينظروا في مشكلة أبيهم . عزَّتْ عليه نفسه ، كأنما أصبح هو الصغير الضَّال .. وهم الكبار الحكماء .. دنيا ..!! أكثر الأبناء ثورة ابنته أمل :

ـ إذا كان بابا يريد منْ يخدمه ، فلم لا يأتي ويقيم معي في شقتي ؟

أضاف زوجها عصام : وإذا كانت شقتنا ضيِّقة أوْ لا تُعجبه ، فنحن على استعداد لأن نُقيم معه في شقته .

نظر إليه الابن الكبير جمال نظرة استنكار ، ثم أردف : ولم لا ندخله دار المسِّنين ؟

صاح الولد الصغير محسن : مستحيل أن نضع أبانا بأيدينا .. في مستشفى المجانين .

اختلف الأبناء كالعادة ، وكان اختلافهم رحمةَ للأب المسكين . كل واحدٍ يريدُ حلاً بعيداً عنه ـ دون أن يتحمل أية مسؤولية ، أوْ يلتزم بأيّ واجب . كَئيبة هي الحياة حين تموتُ شريكة العمر ، وتُحال على المعاش ، ويبتعدُ عنك الأولاد والأقارب .. ومنْ بقى من الأصدقاء . تعيشُ وحيداً .. ولك أهل ، غريباً .. وأنت في دارك . آدم له ابن وليس له أب . ورث أبناءُ آدم عن أبيهم حبَّ الابن ونسيانَ الأب .

أحدُ الآباء كانَ يلبس أبناءَه ملابسَ جميلة جديدة ، ويهمل في حق نفسه ، فلما سُئل عن ذلك أجاب :

أولادي يلبسون ملابس جديدة جميلة ، لأن أباهم حيٌّ ، أما أنا فألبسُ ملابسَ قديمة ، لأن أبي ميِّت . !

* * *

٣ ـ ذهب يستشير صديقه العزيز محمود أبو الخير ــ بينهما صداقة أربعين سنة ، دائماً يُحسن كل منهما فهْمَ صديقه :

ـ لا تظلم نفسَك يا حاج مصطفى .

ـ تعبتُ يا أخي .. الوحدة صعبة ، النهار مُمل ، والليل طويل . لا أجد من يُقدِّم لي كوبَ ماء . أنا رجل كبير .. في حاجة إلى من يخدمني ، ويسليني .

نظر إليه الصديق نظرة مودة وإشفاق . مصطفى معه حق . كافحَ .. وأنجب .. وربَّى .. وتعب . الوحدة حصاد العمر الطويل . تبدو الحياة ـ أحياناً ـ خرافة أسطورية . لكل إنسان دوْرٌ يؤديه ، ثم يترك المسرح . إذا لم يترك مكانَه أنزله أكثر المعجبين به ، وأقرب الناس إليه .

ـ في مثل سننا .. نحنُ في حاجة إلى ممرضة لا إلى زوجة .

ـ يدي على كتفك .

ـ فكّرْ في أولادك يا أبا جمال قبل أن تفكر في نفسك .

ـ زرعتُ .. ولم أحصدْ شيئاً .

ـ تحملْ .. فاتنا القطار .

ـ فاتك أنتَ .. لكن أنا .. أنا ما زلتُ شاباً .

نظر إلى صديقه مصطفى الصاوي نظرة صمتٍ وحيرة . أيهما على حق ؟ أمور الحياة .. صعبة ومعقدة . أنتَ حرٌّ ، ما لم تضر ..! كل إنسان يجب أنْ ينام على الجنب الذي يُريحه . كانا دائماً متفقيْن .. لكنهما اليومَ متباعدان تباعُد الشرق عن الغرب .

ـ كيف تتزوجُ يا صديقي .. وقد تجاوزتَ الستين ؟ ! المرأة لا تريدُ الرجل .. لأنه عالمٌ عبقريّ ، أو شيخ تقيّ ، أو مالك ثريّ ، وإنما تُريده للأمرِ الذي خُلقتْ له الأنثى .

ـ سيدنا زكريا أنجب يحيي .. وهو شيخ كبير .

تذكر طرفة قرأها في أحد كتب الجاحظ ..

يُروى أنَّ رجلاً قبيحَ المنظر ، تزوج امرأة جميلة ، كانتْ تحبه حباً جماً ، ولا تطيق فراقه . فسألتها إحدى جاراتها عن السبب ، فقالتْ : قربُ الوساد ، وطولُ السهاد .. !!

* * *

٤ ـ الحياة لعبةٌ سخيفة ..

أثقلُ ما فيها الشعور بالملل والإحساس بالوحدة . لابـد أنْ يبحث المرء لنفسه عـن دوْر ، وإلا قتله الملل وخنقته الوحـدة . آهـاتُ الليل .. وأوجاعُ النهار .. جَعلتاه يصمُّ أذنْيه عـن غضب الأولاد .. ورفض الأصدقاء . ماذا يفيدك .. لـو رضـى عنـك النـاسُ أجمعين .. وخسرتَ نفسك ؟ ! قرر أن يتزوج سريعاً ، لأن المـوت أمـلاً أفضـلُ من الحياة يأساً . مضتْ إجراءاتُ الزواج سريعاً ـــ دون أن يحضرها أحدٌ من أبنائه أو أصدقائه .. إلا محمود أبو الخير :

ـ أنا مختلف معك ، لكنى لا أستطيع أن أتخلّى عنك . فمـن يقـدر أن يضحيٍّ بصداقة أربعين سنة من أجل مسألة خِلافِية .

ـ الزواج شريعةُ الله .. وأنا واحدٌ من عباده .

رجاء .. مطلقة في التاسعة والعشرين ، طُلقتْ بعد خمـس سنوات زواج .. لذنبٍ لا دخل لها فيه . امرأة عاقر . لو كان الرجلُ بالحالة نفسها فهـل كـانتْ ستطلب الطـلاق .. ؟ ! امـرأة مُطلقـةٌ .. يتيمـةُ الأب .. فقيرة الأم .. تعيش على جنيهات المعاش القليلة . رزقها الله به فشـكرتْ ، وأنعـم الله عليـه بهـا فاطمـأنتْ روحـه ، وشُـفيتْ جروحه .

الأمرُ الوحيد الذي يُحزنه أن أولاده بعيدون عنه ، وإنْ جـاءوا .. فلا يُعاملونها معاملة كريمة ـ رغم أنها تفرحُ بهـم ، وتقـدِّمُ لهـم كـل

ما تقدر عليه . سامحكم الله يا أولادي .. لا ترحمون ولا تريدون أن تنزل رحمة الله . امرأة عقيم .. لن تلد لكم أخاً ، يشاركـكم في أيّ شيء ، فلم أنتم غاضبون ، وعن أبيكم غافلون .. ؟ ! سامحكم الله .

* * *

٥ - كما ينمو النخيلُ في الصحراء استقرَّ حبها في قلبه .

لم يمضِ على الزواج أكثر من سنة ، لكنه سعيدٌ بها .. وهي كذلك . أحبها بكل ضَعْفه ، واقتربَ منها بكل أوجاعه الروحية والجسدية . امرأة شابة .. جميلة .. لا تسأله عن شيء .. وتجيبُه إلى كل ما يطلب قادراً .. أو غير قادر . يكفيها أن يكونَ راضياً عنها ، فهو أب وزوج وصديق . الحياة بلا أنيس قبرٌ مظلم . السعادة الحقيقية .. أنْ ترضى بما قسم الله لك .. ! !

* * *

٦ - انتهتْ عمليةُ الغسيل ..

ملأتْ السلة ، نظرتْ إليه متكئاً على الكنبة : سأنشرُ الغسيل على السطح .. خلّي بالك .. لن أغلق الباب .

- لا تتأخري فقد جعتُ .

- من عيني .. يا حبَّة عيني .

أمسك الجريدة حتى يملأ فـراغَ الفضـاء ، لكـن ذكـرى المرحومـة سناء .. ألحتْ على خاطره . الماضي جزءٌ من الحاضر ، بل جزءٌ منّا . أنجبْت له البنين والبنات ، وتحملتَه في أوقات الصحـة والمـرض .. وفي أيام الهناء والشقاء . لكنها ماتتْ ..! لماذا يموتُ الأحبابُ ، ويـترُكون خلفهم عبئاً .. لا يقدر عليه سواهم ..؟ ! الله كريـم لا يتخلّـى عـن عباده . ذهبتْ سناء .. وجاءْت رجـاء . رجـاء الآن هـي الحـاضر .. هـي كـل عالمـه . العجيـب أنـه تعوَّد عليهـا ، وصـار لا يقـدر علـى فراقها :

يا عُشّي الآمن .. أنتِ الأمل .. والحب .. والحياة . منْ كانَ يظن أن قلباً تجاوز الستين ، يفيضُ بكل هذه المشاعر ؟ ! مثلما تنحدرُ مياه النيل من أعالي الجبال .. تتدفقُ عواطفي نحوك يا رجاء . العواطفُ لا تجف .. والقلب لا يهدأ .. ما دام هناك عطاء .. ورغبة في الحيـاة يـا رجاء القلب المعذّب . !!

* * *

٧ ـ في ليلة صيفية كان يعابثها .. ويُداعِبها ..

طلب منها أن تدلّك ظهره . نظرتْ إليـه في دلال .. وهـي تعـدل حّمالة قميصها البمبي :

ـ صافي يا حبيبى .

ـ نعم يا ريري .

ـ ألستَ زوجي ؟

ـ ماذا نعمل الآن ؟

ـ من حقّي عليك أنْ نذهبَ إلى السينما .. أو نجلس على النيل في أحد الكازينوهات .

ـ اسْتحي يا رجاء .. ماذا لوْ رآني أحد الأولاد ؟

ـ تفكّر دائماً في أولادك .. أما أنا ، أنا وحدي المسكينة التي تخلص لك ، لا تفكر فيها .

لا يدري لم .. ولا كيف انخرطتْ في بكاء وعويل بعد أن كانت في لحظة أنس وحب . ليس هذا بكاء بالمصادفة ، إنه تعبير عن أحزان عميقة .. بعيدة الغوْر . اقترب منها محاولاً أن يضمها ، ويمسح دموعها الحارة بيده الجافة :

ـ لم كل هذا يا ريري .. هل أغضبتك ؟

ـ أنت لا تحبني ؟ !

ـ من قال هذا ؟ .

ـ تريد أن تأخذ دونَ أن تُعطي .

ـ لا أفهمك .

ـ أريد أن تؤمِّن مستقبلي . ماذا أفعل لوْ ..

وضع إحدى يديه على فمها ، وطوّق كتفها بالأخرى : اسكتي .. لا تنطقي كلمة أخرى ..!

ـ تضحك عليَّ .

ـ أقدر تضحيتك .. يكفي أنْ تعرفي أنني أحبك .

ـ كلام تقوله في الليل فقط .. ! !

* * *

٨ ـ رجعت بعد نشر الغسيل .

أغلقتْ باب الشقة دون أن يحسَّ بها . وضعتَ الشال الأحمر فكشف عن جمال كتفيْها ومقدمة ثديْيها . قالت وهي تمشّط شعرها بأصابع يدها اليسرى : مالك جالس مثل المنفلوطي ؟

ـ من المنفلوطي هذا يا ريري ؟

ـ واحد أدباتي .. كنا نقرأ له في المدرسة .

ـ أديب .. غير أدباتي يا حبيبتي .

ـ المهم .. ألا تريد أن تتغدى ؟

ـ الأكل من يدك الجميلة .. له نكهة خاصة .

ـ قم ساعدني .. لكن اخلع الجلباب والبس البيجاما ، حتى تبدو شابا مودرن .

ـ الإنسان بالمضمون وليس بالشكل .. يا حبيبتي .

ـ تقول كلاما .. لا أفهمه .. !!

ذهبتْ إلى المطبخ ، بينما كان يخلع الجلباب .. سمع صوتها يصيح .. ويعلو :

ـ هكذا يا رجل .. ألم أقل لك ؟

عادت متجهمةً ، وهي تنظر إليه في حيرة .. وغضب .

ـ ماذا قلتِ ؟

ـ خَلّي بالك من باب الشقة .. لكنك رجل خائب . سرحتَ كالعادة ، ولم تنتبه إلى القطة التي أكلت السمك .

ـ ما العمل ؟

ـ تصرف .

خَلع الجلباب ، لكنه لم يلبس البيجاما ، وإنما لبس القميص والبنطلون ، وخرج يشتري طعاما للغداء ، حتى ترضى عنه رجاء ...!! *

(*) مكة المكرمة ـ السبت ١٤ أغسطس ١٩٩٩ .

العجوز.. والقطة

قطةٌ صغيرة ..

وإنْ كان يصعب ـ غالباً ـ تحديدُ أعمار القطط ...!!

يراقبها في صمت عن قُرب بعيد .. أو بُعد قريب . يجلس على أريكة في حجرة النوم ، وهي تقف ـ في ثقة وتحدٍ ـ قبيْل الباب . وقفتْ على رجليْها الأماميتيْن ورفعت رقبتها ورأسها ، بينما جلستْ على رجليها الخلفيتين ومؤخرتها . بدت مثل تمثال فرعونيّ أُتقن صنعه . عيناها ـ في الضوء الخافت ـ تترقب حركته في صمت وهدوء . اكتشف وجودها فجأة . كلاهما جالس في مكانه ، لا يتحرك فيهما إلا العينان . لغةُ العيون لغة من نوع خاص . العيون تقول ـ أحياناً ـ ما تعجز عن البوْح به الألسنة .

اليوم .. يوم إجازة عارضة . توجه الأولاد إلى مدارسهم ، وذهبت الزوجة إلى السوق ـ كعادتها كل يوم . تجاوز الخمسين ، لكنه ظل على عهْده القديم . يميل إلى الوحدة والتأمل ، ولا يحب الزحام أوْ الذهاب إلى الأسواق . الوحدة عبادة . قراءة الصمت أفضل لديه من أحاديث الثرثرة ومخالطة ناس هذا الزمان ـ الذي يصعب أن تجد فيه صديقاً وفياً .

القطة جميلة ..

لونها يجمع بين الأبيض الناصع والرمادى غير الواضح . كيف اقتحمتْ هذه القطة عالمه الخاص .. وفرضتْ وجودها عليه .. ولم ترقبه في ثقة وتحدٍ .. ؟ ! نظرتْ إليه .. ونظر إليها . قالتْ العيون أشياء .. حاول أنْ يفهمها .. لكنه عجز عن البوْح بها ، حتى بينه وبين نفسه . كاد يفهم ما تريده هي منه ، أما هو فلم يكن يعرف ماذا يريد منها . رغب في كوب من الشاي الساخن ، يُدفئ يديْه ورئتيْه ، ويُنعشُ قلبه وفكره . أحسَّ أنه غير قادر على الحركة . وهنَ عظمه ، وضعُفَ عزْمُه .

بين الرغبة والقدرة ..

تحرَّك صراعٌ عاصف في داخله . الصراع نارٌ تتلظَّى .. تؤرّقُ الضمير ، وتحيِّر الفؤاد ، وتُشتتُ الخاطر ، ويصبح المرء مثل ريشة تعبثُ بها الريحُ في يوم عاصف .

مع دخان السيجارة الذي يتبدد بين فمه وفراغ الحجرة ـ راودته فكرة غريبة .. لم تخطر له على بالٍ من قبل . أشرقتْ في بصيرته الحكمة ـ التي لا يتلقاها الإنسان إلاّ بعد أن تشتعل الرأسُ شيْبا ، ويصبحُ ما بينه وبين النهاية ، أقصر مما بينه وبين البداية .

الإنسـان .. ذلـك الكـائن العجيـب ــ الـذي تتجمـع في هيكلـه الضعيف كل تناقضات الوجود ـ كلما تقوى لديْه الرغبـة ، تضعـف عنده القدرة . عندما يصير العقل قادراً على الحكمة وعُمـق البصيرة وفصْـل الخطـاب .. يضعـف الجسـد وتَخُور قـواه وتعجـز أعضـاؤه . معادلةٌ غير مُتعادلة . يصعبُ أن تتوازى كفتا الميزان .. في أية مرحلـة من مراحل مسيرة الكائن الحيّ .. !

عاود النظر إلى القطة ..

تبـدو صامتـةً ــ في مكانهـا ــ كأنما لا تـراه ، بينمـا هـو يراهـا بوضـوح . أهـذا شـأن تلـك القطـة وحدهـا أمْ تلـك طبيعـة القطـط جميعها..؟! تتعـرض في ثقـة مـبرزة مواهبهـا الفطريـة ، وتـترك الآخـر يتصرَّف كما يشاء إذا شاء . ثـم .. ثـم يكـون ردَّ فعلهـا بحسـب مـا ترغبُ هي ـ لا ما يرغب هو . القطة مخلوق ضعيـف ، لكنـه يتقـوَّى بذكائه ، وهي في الوجـدان الشـعبي .. كـائن لـه « سـبعة أرواح » ، وليست لهُ .. روح واحدة .

تذكر قصةً شعبية قديمة ، تحكي :

طاردتْ قطة فأراً ، فجرى واختفى
في زجاجة ، وتعذّر على القطة
دخول الزجاجة لضيق فوْهتها .
فأمسكتْ عنق الزجاجة بمخلبيْها
الأماميين ، ثم مدَّتْ شاربها إلى
الداخل حتى مسَّ الفأر ، فارتعش
بسبب وخْزِ شاربها ، فقالت القطة
من خارج الزجاجة : يا سيادة
الفأر ، لقد جئتُ متمنية لك العمرَ
المديد .
فقال الفأر : أنتِ منافقة ، لأن هذه
الأمنية ليست من صميم قلبك .
إنك تحاولين بكلماتك المعسولة
إغرائى بالخروج من الزجاجة كي
تأكليني .. ! !

شغلته دلالة الحكاية ، إذ كيف تتمنى قطة قوية لفأر ضعيف عمراً مديداً . لكن لماذا يفكر في قطة خرافية وأمامه قطة حقيقية ..؟ !

طفق يعيدُ النظر إليها منبهراً بجمالها .. متعجباً من ثباتها . بدرتْ منه التفاتة مباغتة ، فاكتشف أنها تراه من حيث لا يراها . قطة مراوغة .. ومع ذلك يقولون إنها مخلوق ضعيف أليف .. ! !

عقبُ السيجارة ..

كاد يحرق أصابعه ، فأطفأه بسرعة في الطفاية . ليس من عادته أن يدخّن كثيرًا فى الصباح . اليوم يشعر أنه يحسُّ أزمة ما .. أزمة لم يمرّ بها من قبل طوال عمره الزوْجى المديد . أعقابٌ متناثرة تملأ الطفاية .. وحولها رماد كثير . يستطيع أن يطفىء نار السيجارة بين طرفة عين وانتباهتها ، بيد أن نارًا تتلظّى فى أعماقه ، لا يقدر على إطفائها ، ولا يستطيع التعبير عنها .

استعادتْه القطة إلى نفسها عن طريق مواء رقيق متقطع . فرجع من سفر بعيد إلى محطة يمكن الوقوف عندها . تحركتْ مشاعره فى حنان نحوها . القطة لا تموء إلا إذا كانت جائعة . خشي أن يذهب إلى المطبخ ويحضر لها كوبًا من اللبن ، فتجرى وتذهب بعيدًا إلى حيثُ لا يدري .. ولا يتمنّى . آثر أن يظل فى موقع المراقبة من بعيد .. لعل .. وعسى ..!!

لوْ أدركته فى شبابه ..

لجرى بخفة وأمسكها بيديْه . يوم ذاك .. لم تكن تحول دون رغباته قطةٌ متمردة .. أو نفس لائمة . لكن كلمة (لو) هذه ، تفتح أبوابَ العجز ونوافذ الحسرة . تلك القطة تثير فى نفسه أفكارًا متصارعة ومعانى متعارضة . يدرك جيّدا بخبرته الوظيفية أن الصراع تحسمه — دائمًا — القدرة ، وليست الرغبة . هو رجل عجوز .. وهى قطة شابة ، فكيف يلتقى الخريف بالربيع .. وأنّى تُعانق أضواءُ المغيب شمسَ النهار ..؟! ليت الشبابَ يعودُ يومًا . الإنسان يُفْنى شبابه من أجل البحث عن لقمة عيش . فإذا ما سكتتْ المعدة تحركتْ عنده أعضاء أخرى . لكنها تتحرك — فى الغالب — بعد فوات الأوان .. وضياع الزمان — زمان الفعل والقدرة ..!

تأمل سيرته ...

فوجدها مبعثرة مثل أشياء الحجرة التى يجلس فيها . ليستْ حياته وحدها هى التى تبدو فارغة من أىّ معنى . الدنيا كلها صارتْ مأساة هزلية ساخرة . الإنسان .. ذلك الكائن المغرور ، يظن أنه قادر على أن يفعل ما لم يفعله غيره .. وأن يحقق ما قد يعجز عنه الآخرون ..

طالما أنه يملك الرغبة الصادقة والرؤية الواضحة . شيئًا فشيئًا يتبيَّن أن غروره أضْغاثُ أحلام — أحلام مراهقة فكرية ، جاءتْ فى غير

موعدها . كل ما يأتى فى غير موعـده .. سـرابٌ وقبـضُ الريـح..!! القطة الصغيرة .. لا تزال تُشغله وتُشاغله . الرجـل الحكيـم ضـاعتْ حكمته وانهزم كبرياؤه . لم يعد يدرى .. ماذا يمكن أن يفعل مع هذه القطة التى اقتحمت حياته فجأة ..؟!

دقات متواصلة ..

على باب الشقة . قـام متثاقلا بعـد أن أطفأ السـيجارة . عـادت تفيدة زوجتـه مـن السـوق ــ تنوء يداها بمـا تحمـل مـن خضـروات وفاكهة وخبز . اندفعت نحو الداخـل ، وتركـت الأشـياء تتبعثر فـى ساحة الصالة :

ــ نمت يا وحيد ؟

ــ لا .

ــ كنت تتكلم فى التليفون ؟

ــ لا .

ــ كنت فى الحمام ؟

ــ لا .

ــ كنت تعمل شيئا .

ــ لا .

نظرت إليه وهى تحاول نقل الأشياء المتناثرة إلى المطبخ ، فوجدته على غير عادته المألوفة :

ـ أنت مريض يا رجل ؟

ـ لا .

ـ إذن لم أخذت إجازة اليوم ؟

ـ ....

لم يستطع أن يخبرها الحقيقة ..

لقد هرب من إغراء السكرتيرة الحسناء الجديدة ، التى تتصدى له فى حياء وخفر ، وتتحداه فى صمت وصبر . تذكر القطة .. منذ لحظة كانت هنا . أخذ يبحث ـ فى هدوء ولهفة ـ عنها .. هنا .. وهناك . لم تكن تهمة ثرثرة الزوجة بقدر ما كان يعنيه البحث عن القطة الصغيرة الجميلة . اشرأب بعنقه يمينا ويسارا ، فلم يجدها . هل كانت هنا قطة حقيقية .. أم أن ما حدث بعض أضغاث أحلام الخريف ؟. ماذا جرى للأستاذ وحيد عبد الرؤوف .. لا يعرف . لكن الذى يدركه جيدا أن القطة التى تراءت له قد اختفت ، بينما بقيت قطة أخرى .. لا يدرى .. لا يدرى ماذا يمكن أن يفعل معها..؟! (*)

(*) مكة المكرمة ـ الخميس ٩ سبتمبر ١٩٩٩ .

مَوْسِمُ

القَتْلِ الجميل

(1)

خالد سرحان

عُ د تُ .. اليومَ بعد السنوات العشر ، التي قضيتها مغترباً في مدينة الدوحة . حين نزلتُ من الطائرة قبّلتُ الأرض . ترابُ الوطن .. أغلى من كنوز الدنيا . كل ما تحصُل عليه .. لا يساوي العذاب والاغتراب ، والبعُد عن الأهل والأحباب ..!

ضحيتُ بكل شيئ من أجل زوجتي وابني الحبيب . صعبٌ أن تُبنى أسرة بالمراسلة .. والمكالمات التليفونية . دخلتُ البيت . أحسستُ أن هناك أموراً غير عادية . زوجتي تعلم أني عائد اليوم ، ومع ذلك قابلتني ببرود وتجهُّم . تناولتُ العشاء ـ وحدي ـ مع سامي . دخل الطفل إلى غرفته سعيداً باللعب والملابس التي أحضرتها له . لم يبق إلا أنا وهي . حاولتُ أن أتودد إليها . أخذتُ أقدم لها ما أحضرتُ من ملابس جديدة .. وأدوات زينة . فجأة .. وقفتْ متجهمةً :

ـ أنا متعبة .. سوف أنام مع سمسم .

ـ مالك يا ابنة الناس .. ؟ !

ـ غداً نتكلم .. بعد أن يذهب الولدُ إلى الحضانة .

أصابني الذهول .. ماذا جرى .. لم كل هذا .. ؟ قلتُ غاضباً :

ـ لماذا لا تتكلمي الآن ؟

ـ أصبحتَ غريباً عني ..!

ـ أنتِ التي طلبتِ ذلك .. نسيتِ ؟ !

ـ الظروف تتغيَّرُ .

أي ظروف .. وأي تغيير .. ؟ !

ماذا أقول لهذه الجاحدة .. ؟ هي التي طلبتْ مني السفر ، حتى أحقق متطلباتها المادية العريضة .

جفَّ ريقي .. اضطربتْ أعضاء معدتي .. كاد رأسي ينْفلق . لا يزال عندي أمل .. ورجاء .. ورغبة في أن تعود المياه إلى مجاريها .

ـ لم كل هذا يا أم سامي ؟

ـ الحياة بيننا صارتْ مستحيلة .

ـ ماذا تريدين .. ؟ !

ـ الطلاق .

ـ ابننا .. وبيتنا .. والحب الذي بيننا .

ـ قلتُ رأيي .. وأنا مُصرّة عليه .

دخلتْ وأغلقتْ باب الغرفة بهدوء . لم تبالِ بالقنبلة التي فجَّرتها . يا مثبتَ العقل والدين .. ! زُلزلت الأرض زلزالها ، وبعثتْ الجاحدةُ شيطانها . مكرُ المرأة الشريرة أشد من مكر الشيطان . أمي كانتْ تردد « ما عفريت إلا بني آدم » . ليتني أملك سيفَ شهريار ، لأقتل هذه المرأة .. المرأة التي قتلتني .. وعذبتني . هل أنا ضحية أم

جلاد ..؟! في عصر الخوف والزيْف يتساوى القتيل والقاتل . القتيـلُ معصوبُ العينين ، لا يعرف نقطةَ ضعْفه . القاتل كائنٌ شـريرٌ .. إنْ لم يجدْ من يقتله ، قتل نفسه . لا ينقذني من هذا العذاب إلا صدر أمي . أمي ماتتْ .. يرحمها ويرحمني الله .. ! !

قعدتُ وحيداً مع الأشياء المبعثرة حول حقـائب العـودة ـــ عـودة الندامة . ! عشرُ سنوات ذقتُ فيها المرَّ والهـمَّ .. واكتويـت بلهيـب الشمس الحارقة ، والرطوبة الخانقة ، والليالي القاسية . أعطيتهـا كـل شيء ، حتى أشبعَ نزواتها الطائشة ، التي لا حدَّ لها . بـني آدم لا يمـلأ عينيه سوى التراب . كنتُ أرسـل لهـا مـع بداية كـل شـهرٍ الراتـبَ كاملاً ، وأعيـشُ مـن حصيلـة العـلاوات والبـدلات والعمـولات . لم أحاسبها حتى اليوم .. على مـا أرسـلتُ لهـا مـن دولارات ـــ طـوال عشر سنوات . إذا لم يثق الإنسان في أمٍّ ولده فبمن يثق ؟ !

أحضـرتُ لهـا مـا لم تكـن تحلـم بـه سـندريلا .. وسـتٌّ الحســن . العجيب أنـي تزوجتهـا عـن قصـة حـب مثـل قصـة حسـن ونعيمـة . والأعجبُ أن الحمل الوديعَ تحوَّل إلى ذئبٍ غادر ؟ ! لا شيئ يأتيّ من فراغ .. لا بد أن هناك سرًّا .. سرا مؤْلمًا . ربَّما كان هذا الهـاجس ، هو الذي دفعني إلى العودة النهائية .

حين قررتُ العودة ، رفض صاحبُ العمل بمودةٍ وإخلاص :

ـ إذا كنت تريد زيادة الراتب .. ليس عندي مانع . تعرفُ كل صغيرة وكبيرة في العمل ، لن أجد رجلاً في أمانتك وإخلاصك .

ـ لن أنسى أفضالك يا حاج سلطان .. لكن لا بد من العودة وإنْ طال السفر .

ـ سأعطيك إجازة مفتوحة .. قد تراجع نفسك .

استرخيت ـ بعد أن شعرتُ أن جسمي تفكك إلى شَظايا مُبعثرة ـ بملابسي ، التي لم أخلعها على كنبة الأنتريه في الصالة . لم أعدْ قادراً على أن أدخل الحجرة ، التي شهدتْ ليالينا الجميلة . تحوَّل الماء الصافي إلى بركة عطنة ، بل إلى مُستنقع كريه .

تداخلتْ الظنون .. واشتعلت الهواجس . يا منْ يأخذُ ما بقى من عمري .. وما أملك من تجربة وثروة .. ويرشدني إلى الحقيقة ـ الحقيقة المرة ، التي تدور في عقل هذه الهيفاء . أحملُ من الآلام .. فوق ما يطيقُ إنسان . يا ألله .. خذْ بيدي .. ساعدني على أن أجتاز البرزخ ، وأرى الطريق .. ! الحياة .. لعبةٌ سخيفة ، فلم يا ألله جعلتنا نتقاتل بسببها ، ونشقى بأمورها . الحكمة لله في السماء .. وعلى الأرض العذاب والألم . قابيل .. لم قتلتَ هابيل .. ؟ !

لو لم يكن لي منها طفل .. لقذفتها بعيداً بكل قوتي إلى أن تستقرَّ في الأرض السابعة ، مع الأنفس المتمردة والأرواح الشريرة .. ! !

عشتُ طوالَ عمري أحلم بالحب والهدوء . صحوتُ من كـابوس مخيف على الغدْر والشرّ . آه .. يا ربي . كيـف .. كيف نسيتُ .. نسيت صديقي العزيز هاشـم العشـماوي ؟ ! عنـده قـدرة عجيبـة .. يستطيع أن يحل أيَّ مشكلة .. أو يُعقّد أي مسـألة سهلة . لا أتذكـر من كان يسميه من أصدقائنا « البهْلوان » . لابدَّ أن آخذ رأيه ، فهو صاحبُ منطقٌ مُقنع ، كما أنه هو وزوجته ندى كانا أقرب الناس إلى زوجتي في أثناء سفري . هاشـم كـان ينبغي أن يحضـر الليلـة .. فمـا الـذي حـال دون أن يسـتقبلني في المطـار .. أو يـأتي للزيـارة هـو وزوجتـه ؟! لم أنسـهما في الهدايـا . عظـام ظهـري تؤلمني مـن نومـة الكنبة .. كأني أتقلبُ على شوكٍ . هاشم يا صديقـي العزيـز .. لمـاذا غبتَ عني في هذه الليلة السوداء .. ؟!

* * *

(2)

هيفاء شفيق

تَ زوَّجتُ .. خالد ، وكنتُ سعيدةً به . انتشلني من الفقر والحيّ الشعبي . أنا التي طلبتُ منـه السفر . رفـضَ أن نذهـب معـه ، حتـى يستطيع أن يدّخر أكثر .. وأكثر . الفقرُ يجعلك تسيرُ مع الناس علـى أرض الواقع ، أما المال فهو بسـاطٌ سـحريٌ ، تجلـسُ متكئـاً عليـه .. وتحلم بمالا أذنٌ سمعتْ ، ولا عين رأتْ ، ولا خطر على قلـب بشـر .

المالُ .. المال .. هو الذي يجعلنا سعداءَ .. نأمرُ فنُطاع . كل مشكلاتِ الدنيا بسبب المال . المال يجعلُ الناسَ .. تقول للجاهل يا أعلم العلماء ، وللأحمق يا أعقل العقلاء ، وللبخيل يا أكرم الكرماء ، وللحمار يا أمير الصحراء .. !!

كان أبي بخيلاً ـ إلى حدٍ ما ـ بسبب الفقر ، ورغم ذلك فإن أمي ـ رحمها الله ـ كانتْ لديها عادة طيبة ، وهي معرفةُ ما في جيْب أبي يومياً ـ دون أنْ يعلم . كلما وجدتْ .. أخذتْ بحكمة ، حتى لا يعرف . كوَّنتْ من هذه القروش القليلة ثروة معقولة ، اشترتْ بها بعض قطعٍ من الذهب .. لم تكن تلبسها ، وإنما تُخفيها لوقت الشدَّة .

أنا امرأة حكيمة مدبِّرة مثل أمي . مفتاحُ تفكير البنت .. شخصيةُ أمها . المرأة الذكية هي التى تجعل الرجل مطيةً لتحقيق رغباتها . الرجل بحرٌ .. والمرأة جسرٌ . سيدة جميلة أنا وشابة .. أخيراً ـ وهذا أمر مهم ـ غنية ، أملكُ آلاف الدولارات ـ لا الجنيْهات . خالد رجل مسالم .. مطمئن من ناحيتي ، لذلك لم يسألني عن شيء .

ـ ماذا عندنا من دولارات . ؟

ـ لا أعرف .. الدولارات في الحفظ والصون . آخذُ ما يكفيني أنا وسمسم ، والباقي باسمي .. في البنك .

ـ بارك الله لي فيك يا زوجتي الحبيبة .

هاشم يملك حاسة سادسة . وربما سابعة ، نصحني أنْ أعمل وديعة بالدولار في بنك آخر بعيد . الاحتيـاطُ واجـب .. لـولا أنـه يحُبي مـا نصحني . أصبح هـو المستشـارُ الاقتصـادي ، لأنـه رجـل عجيـب .. يلعب بالبيْضة والحجر . ثالوثُ الشـباب والجمـال والغنـى .. شـكل المغناطيس الذي جَذب هاشم إليَّ بسرعة البرق ، وجذبني إليـه بكـل شوق الأنثى المحبّة للحيـاة والمتعـة . رجـل بهلـوان ــ كمـا قـال عنـه خالد . أوه يا خالد . البعيدُ عن العين بعيد عـن القلـب . هاشـم أراه معظم اليوم في شقتي .. أوْ في الخارج . صحبني إلى كثير مـن المنـاطق السياحية . مصر بلدنا بلد سُوَّاح ..! كل منا كان يتعامل مـع الآخـر بقـدرٍ مـن الذكـاء الخبيـث ــ لا أرغـبُ في أن أسميـه مكـراً .. وإنمـا فكراً .. من أجل مستقبل أفضل .

أصبح هاشم مثل الخاتم في أصبعي ..

بدأتْ زوجته تغار . حسناً فعلتْ . لم تعدْ تأتي معه . لم يعدْ يحدّثـني عنها .. ولم أعدْ أكلمه عن خالد . الكلام في الحبِّ .. وعن الحـبّ لا ينتهـي . الـوشُّ في الآذان أقـوى مـن السـحر . سـحرني بكلامـه ، وجذبني نحوه بحبلٍ من كتّان . رجل كله حيوية .. وشيْطنة .. وخفـة دمّ . شغلني .. وأذابَ الثلج ، الذي التفَّ حول قلبي . كلما ازددتُ

تعلقاً بهاشم ، ازددتُ بُعداً عن خالد . ســنةُ الحيـاة .. العضـوُ الـذي ليستْ له وظيفة يَضمر ويتلاشى ..!!

ـ هيفاء .. حُبّي .. حياتي .. رُوحي ..!

ـ نعم يا شوشو .

ـ حبك يسري في دمي .

ـ لهذا صار دمك خفيفا .. يا رجل يا شقي .

ـ لم أعد أستطيع الاستغناء عنك .

ـ لكنك تنام كل ليلة مع امرأة أخرى .

ـ نوم الغرباء .. ظهري لظهرها .

ـ لابد أن تعمل شيئا .

ـ هذا بالضبط .. ما أردت أن أكلمك عنه يا حبيبتي .. الحب من غير سكن طفل ضال .

ـ وضح كلامك .

ـ نشـتري شـقة .. تكـون عشـاً للقـاء .. وفي المسـتقبل مسـكنا للزواج .. يا نور عيني .

ـ من أين ..؟!

ـ من البلابل .. التي تغرد في حسابك كل شهر .

ـ خالد .. قد يسأل عن الدولارات .

ـ امرأة ذكية مثلك يا حبيبتى تستطيع أن تتصرف .

قبلني .. كنتُ شبه مغمضة العينين . المرأة إذا أحبت لا ترى الدنيا إلا من خلال عينيْ من تحب ..!

راودتني هذه الخواطر المبعثرة ، بينما خالد وحيد في الصالة . كنت أقضي الليلة في شقة الدقي القديمة الضيّقة .. وأنا أحلم بالانتقال إلى شقة مدينة المهندسين الجديدة الواسعة ..!

* * *

(3)

هاشم العشماوي

أ عْ لمُ .. أن خالد سيعود اليوم ، لكنّي تعمدتُ ألا أقابله في المطار .. وألا أزوره في البيت . التخطيطُ أفضل من التخبيط . كل هذا من أجل عيونك الجميلة .. وشقتك الجديدة .. يا حبيبتي . من الذي أشعل نار الحبّ .. هي أم أنا ؟! غير مهم .. المهم هو الحبُّ ـــ الحب الذي أنساني صديقي القديم .. وزوْجتي الحزينة ، التي بدأتْ تغار .. وتضيّق عليَّ الخناق ، حتى تبعدني عن هيفاء العزيزة ..!!

أنا إنسان مجرِّبٌ .. تجاوزتُ الأربعين . لم يعد في حياتي مجال للعاطفة . لغةُ الحساب هي اللغة التي أفهمها .. وأجيدها . عندي زوجة لا تعمل .. لن أطلقها ، وإنما سوف أضيفُ إليها امرأة أخرى ذاتَ مالٍ .. وجمال . صيْدٌ ثمين .. وبقرة حَلوب . المرأة ـــ بحسب خبرتي العاطفية ـــ عندما تحب تكون خجولة مُستكينةً .. أوْ تدَّعي

ذلك . الرجل هو الذى ينبغي أن يبدأ الهجومَ ، ويدير المعركة .. أو هكذا يُهيئ له .

أعرفُ أننى موهوبٌ بالفطرة . فتحتُ أبواب القلعة بحلٍ سلمى .. وكلام معسول . تمَّ تنفيذُ بنود معاهدة الغرام ـــ كما رسمتُ وحددت . أقصد كما اتفقنا أنا .. وزوجتى هيفاء . صحيح أنها لم تُطلَّق بعدُ ، لكننا اتفقنا وتعاهدنا . اشترينا شقة فى الجيزة بدولارات الدوحة ، الدولار مفتاحُ سحرى لكل أزمات العصر . أصررتُ على أن نكتب عقد تمليك الشقة باسمها ، حتى لا يلعب الفأرُ فى عبِّها . قالتْ بعد أن تسلمت مفاتيح العشّ الجديد :

ـ خُذْ مفتاحًا معك .

ـ لا .. لن أدخل هنا إلا ورجلى على رجلك .

ـ أعطيتك مفتاح قلبى .. فلم تمانع فى أخذْ مفتاح الشقة ؟

أصبحتُ شهريار .. عندى شقتان .. وزوجتان . " فتّحْ عينك تاكل ملبن " ، فما بالك إذا فتحت العين والأذن والقلب والعقل ..؟! الكفاحُ يجعل للنصر طعمًا خاصًا . حبُّ هيفاء كان معركة .. تحتاجُ إلى مناورة ومشاورة .. ودهاء وذكاء . صبرًا يا قلبى المُشاكس .. فالفرح صار على بُعد خطواتٍ معدودات . الصبر جميل والحبُّ أجمل ..! الصبر جميل .. جميل جمال .. ولا فى الخيال ..!!

مفاجأة غير متوقعة ..

زارني خالد في مكتبي بشـركة المقـاولات .. بعـد لقـاءٍ حـار مـن جانبه .. وباردٍ ـ أحاول ستره ـ من ناحيتي ، سألته :

ـ كيف تشرب القهوة ؟

ـ سادة .

ـ حاول أنْ يُخفي بعض اضطرابه وتردده .. صديقي وأنا أعـرفُ عاداته ، بل أعرف ما يعاني منه الآن على وجه التحديد .

ـ هاشم .. عندي مشكلة .

ـ خيرًا .

ـ هيفاء .. تريد الطلاق .

ـ هذه مشكلة خاصة .. خاصة جدًا .

ـ أنت صديقي الوحيد .. حاول أنْ تتدخل أنت وندى .

ـ لا أقدر .

كيف أخبره أن ندى لو عرفتْ لطار البرجُ الباقي من عقلها ..!!

ـ على الأقل .. ساعدني .. قل لي ماذا أفعل .

قلتُ محاولاً ألا تلتقي عيناي بعينيه : تريد رأيي ؟

ـ نعم فورًا .. لوْ سمحت .

ـ أنت رجل غنيٌّ .. إذا كانتْ هيفاء تريدُ الطلاق ، فتسـتطيع أن تتزوج ممن هي أفضل منها .

- قالت إن الرصيد يساوى صفرًا .

انتظرتُ لحظة ، حتى لا أكشف المستور :

- ربما كان كلامها صحيحًا . أنت تعرفُ الغلاء وكثرة المصاريف . أظن أنها كانت تُنفق عن سعةٍ ، حتى تعوِّض الطفل عن غياب أبيه .

أخذ يتلوى .. وتهتزُّ حركة رجليه ، كأنما لدغته حية رقطاء .

قدمت له سيجارة ، ثم واصلتُ الحديث - وأنا أشعلُ السيجارتينْ بولاعة إلكترونية :

- خالد .. أنت رجل مُتعلم ، ينبغى أن تُعالج الموقف بروح رياضية من أجل طفلك .

- هاشم .. أرجوك ، لا تتخلَّ عنى ، حتى أجتاز هذه المحنة .

- لا أقدر .. هذه مشكلة خاصة ، لا ينبغى أن يتدخل أحدٌ فيها .

شعرتُ أنه - قلقًا - جاء بهمٍّ .. وخرج - حزينًا - بهمَّيْن ..!

قلتُ فى نفسى ، وأنا أودّعه عند الباب : لم أكن أتوقع أن تحسم هيفاء الأمر بهذه السرعة والسهولة ..!

رميتُ عقب السيجارة المشتعل على الأرض ، ثم ضغطتُ عليه بحذائى ضغطة قوية . عدتُ إلى مكتبى بعد أن ودعت خالد عند الباب الحديدى لمدخل الشركة .

* * *

(4)

نـــدى محمـــد

أنا .. زوجة هاشم . أدركُ ـ واعيةً ـ أننا نحن الأربعـة .. شـركاءَ في الذنْب . لا أدرى .. لماذا أحـسُّ أنـى أكثرهم خسـارةً ؟! العزاءُ الوحيد أننى سيدة عاقلة ، هادئة الطبْع ، ربمـا كـان ذلـك بتأثيرِ مـن تربية والدى الشيخ محمد .. وأمى سعدية المرأة الريفية الطيبـة ، التـى تعتقد أن الرجل رجل .. يحقُّ له ما لا يجـوزُ لزوجـه . علقـت إحـدى صديقاتى :

ـ هذه عُقد الكبتِ والتربية الرجعية . المرأة أنثى .. نعـم ، لكنهـا قبل ذلك إنسان فاعل ذو إرادة . الدنيا تغيرتْ يا عزيزتى .

ـ ليْتها بقيتْ على ما هى عليه .

أعترفُ ـ بينى وبين نفسـى ـ أن الخطـأ الـذى وقعـتُ فيـه ، هـو التمسك بالكبرياء وعزَّة النفس . غيابُ خالد أعطى هاشـم فرصـةً ، ليتسلل مثل الثعبان إلى قلب هيفاء . أدركتُ منذُ مدة أنـه يسير فـى طريق اللاعودة . المرأة تشمُّ رائحةَ الخيانـة ، لأن لديْهـا جهـازَ إنـذارِ مبكر ، يتنبأُ بالخطر .. وهو مجرد خاطرة فى الفؤاد .

أرخيتُ له الحبْل أمـلاً فـى أن يـتراجع ، وشـغلتُ نفسـى بطفلتينـا الجميلتين .. رنا وريم . لـم أكـنْ أدرى .. أنـه يفكّـر بهـذه الطريقـة الشيْطانية . ظننتُها مجرد نـزوة .. يفيـقُ منهـا بعـد أن يـدور دورتـه ، ويشعر بخطيئته . من يجرؤ على الفعل ، لا يؤثر فيه الكـلام . كتمـت

همي في قلبي .. واستعذت بربي ..! لكن النار .. نار الغيرة أشد لظى من نار البركان . عندما أتذكر الماضي الجميل والحاضر الحزين .. تشتعل النار .. أكثر وأكثر .

تأخر ذات ليلة .. وعاد يتسلل في الظلام مثل الخفاش . انفجرت .. صرخت :

ـ هذه ليست عيشة .. البيت أمسى مجرد فندق .

رد بتبجح وهو يخلع حذاءه : هل ينقصك شيئ .. ؟!

ـ ينقصني أنت .

ـ أنا رجل .. أعرف طريقي جيدا .

ـ لا تكابر يا أبا البنات .. أنت تسير في طريق الندامة .

ـ لا تشغلي نفسك بأوهام يا بنت الحلال . أغيب عن البيت ، لأني أعمل كثيرا ، حتى أضمن لك ولبناتك عيشة كريمة .

ـ العيشة الكريمة .. لا تتحقق بغير كرامة .. !!

صار الحوار معه مثل النفخ في قربة مقطوعة . أكبر خسارةُ تمنى بها امرأة .. أن تفقد زوجها .. ويخرب بيتها . لا يزال لدي بعض كبرياء الزوجة الجريحة . من باعك بعه . الخسارة القريبة أفضل من المكسب البعيد . أخذت على نفسي عهدا ألا أراجعه أو أعاتبه . العين العمياء .. لن ترى نور الشمس . كتمت أحزاني في صدري المحترق ، حتى أهلي لم أخبرهم بما أنا فيه من بؤس ويأس . أبي

مريض .. وأمي متعبة ، وإخواتي كل منهم مشغول بهمومه الخاصة . أخفيت أحزاني .. وكتمت السهم في كبدي .

تركت الخائن الجبان يفعل ما يريد . لا جدوى من الكلام مع أذن خرساء ، وبصيرة عمياء . هاشم ضاع .. أو مات .. لكن حياتي كلها ستصبح من أجل طفلتين بريئتيْن في عمر الزهور .. أكونُ لهما الأبَ والأم . اللهم إني لا أسألك ردَّ القضاء ، بل أسألك اللطفَ فيه . يارب .. علمُك بحالي ، يُغني عن سؤالي ...!!

* * *

(5)

أَ حَ سَّ خالد ..

أن الحياة صارتْ كئيبةً موحشة . فقد زوجته .. وطفله .. وماله . لم يبق له إلا صديق العمر .ذهب يسأل عن هاشم . فتحتْ له ندى البابَ . أفزعها منظرُه الحزين ، وذقنه الطويلة ، وشعره الأشعث ، وجسده الذي يئن داخل ملابسه الواسعة .

- هاشم موجود ؟

- موجود .. أو غيْر موجود .. تفضَّل .

- إذا لم يكن موجودًا ، أحضر فى وقت آخر .

- ادخلْ يا أبا سامى .. ليستْ كل النساء هيفاء ..!

صنعتُ له كوبًا من الشاى .. طلبت من الطفلتين أن تسلما .. وتذهبا إلى حجرتهما .

- لماذا تسأل عن هاشم ؟
- صديقى الوحيد .. لم أره منذ مدة .
- مازلتَ رجلاً صاحبَ قلب أبيض .. فى هذا الزمان الأسود .
- ماذا تقصدين ؟
- يا ابن الحلال .. هاشم تزوَّج هيفاء .

انتفض واقفًا ..

كأنما لدغه عقرب . كان المسكين يُعانى ألمًا ، لا يقدر على تحمّله . المفاجأة أذهلته ، والصدمة كانتْ غيرَ متوقعة ...!

- الكلب .. الجبان .. النذل .. فعل هذا ...؟
- تحكمْ فى أعصابك ، لأنه لا يزالُ زوجى ..!

بدأ يتأملُ أثاثَ حجرة الصالون ، كأنما يراها لأول مرة - رغم أنه شاهدها كثيرًا من قبل . هُيئ له أن أسفلها صار عاليها .. وأن الحجرة تضيق عليه .. وأن السلسلة الحديدية ، التى تحمل النّجفة تلتفُّ - فى قسوة - حول رقبته . ظل صامتًا .. لا يدرى ماذا يفعل .. أو يقول .

لو كان فى مكان آخر ، لبكى .. وصرخ . صعبٌ على الرجل أن يبكى أمام امرأة غريبة ، حتى لو كانتْ تدرك حجم مصيبته . ندى تقفُ معه - مأساويًا - فى خندق واحد . سهَّل عليها الأزمة - فيما يبدو - أنها شهدتْ مراحل نموُّها خطوة .. خطوة . أما خالد .. فقد

أذهلته الصدمة ، لأنه لم يكن يتوقعها من هيفاء .. وهاشم ، ولم يعرفها إلا بعد فوات الأوان ..!!

أخذ يبكى .. دونَ أن يتكلم . لم تعدْ فيه سوى عينين زائغتين .. وصدر يعلو ويهبط .. ويدَيْن تتحركان حركة غير إرادية . الخيانة أقطعُ من القتل . صاح الجريحُ بصوت حزين :

ــ الأنذال خدعونى .. غشونى .. لا بدَّ أن أقتلهما .

ــ لا يا أخى .. نحن جميعًا شركاء فى الذنب .. من يشترك فى صنع مشكلة ، فعليه أن يتحمَّل بشجاعة .. ويصبر .

ــ لن يشْفى غليلى إلا أن أقتل الاثنين .

ــ كنْ رجلاً .. وتحملْ . كل ابن آدم خطَّاء . المهم .. أن نتعلم من الخطأ . هل تفهمنى ..؟!

ــ نعم .

قبل أن يخرج طلب أن يودع الطفلتين ، لأنه رآهما ضحية من ضحايا الخيانة والغدر مثل ابنه سامى .

قالت ندى وهى تودعه عند الباب :

ــ ماذا تنوى أن تفعل ؟

ــ سأعود إلى الدوحة .... *

(*) مكة المكرمة ــ السبت ١٤ أغسطس ١٩٩٩ .

ريم الفلا .. وإلا فلا ..!

حَ مـام ..

يألفه معظم سكان الحيَ الذي يقيم فيـه . شـكله مميَّز . قلبـه مثـل قلوب الأطفال . لا يرد لأحدٍ طلبا مـن الرجـال والنسـاء .. وأحيانـاً الأطفـال . يقضـي يومـه وبعـض ليْلـه في الذهـاب إلى السـوق والدكاكين . يُحضر المطلوب بالتمـام والكمـال . يُعطي من أرسله الباقي بالقرش الواحد . ربما ينسى .. ويُعطي بعض ما معه إضافـة إلى المبلغ المتبقّي .

أهل الحيّ يعرفون أنه إنسـان طيِّب . لا يكـذب ، لا ينـاقش ، لا يطلب شيئاً ، حتى لو كان جائعاً .. أو اشتاق إلى قطعة فاكهـة من التي اشـتراها . إذا أحضـر لامـرأة شيئاً مـن السـوق ، لا تـتردد في استقباله ، حتى لو كانت بقميص النوم .. وفي غياب رجل البيت .

ـ حمام طيب .. غلبان .. أمين في كل شيئ .

واصلتْ عديلة محدثة جارتها خديجة :

ـ اكرمي الجدع .. الصدقة فيه حلال .. مقطـوع من شـجرة .. دعوته مستجابة .

ـ أي والله يا أختي .. كلامك مضبوط .

سأله صبيٌ من أبناء الحارة ، وهو يعابثُه أمام بعض أصدقائه : ما اسمك ؟

شمر عن ذراعه الأيمن .. وقال في ثقة : اقرأ .

نظر الولد صابر مسعود ابن السيدة عديلة إلى ذراعه ، وقرأ بصوت عال : حمام حسين حمزة ـ بين السرايات ـ جيزة .

لا يعرف أحدٌ من أهل الحيَ مقدار عمره حتى على وجه التقريب ، ولا من أين جاءهم هذا المدعُو حمام ـ رغم أنه يعيش بينهم منذ سنوات بعيدة . لم يتغيّر فيه شيئ منذ جاء إلى الحيّ . طوله لا يكاد يتجاوز المتر بسنتيمترات معدودة . رأسه بها شعر خفيف ، يبدو من تحت طاقية بقرنيْن يلبسها صيفًا وشتاء ، يسمّيها "كلْبُوش". صوته خَشنٌ أجشٌ .. له إيقاعٌ ناشز . ليستْ له لحية . نبتتْ بعض شُعيْرات متناثرة فى موضع الشارب . عيناه بهما حَوَل واضح ، لذلك لا تعرف إلى أىّ اتجاه ينظر . أنفه ممتلئ وفتحتيْ منخاره واسعتان مثل شكمان عربة فولكس . يبدو بلا رقبة تُذكر .. لولا قفاه العريض . جسده أقرب إلى الامتلاء النسْبى . ساقاه قصيرتان . يندر أن يلبس حذاء ، لأن قدمه القصير العريض ، لا يوجد فى أحذية المحسنين القديمة ما يصلح له . يُفضّل لبس شبشب بلاستك "زنوبة" .. من شكل واحد .. أوْ غير واحد . جلبابه الملوّن مرة قصير ضيِّق .. وأخرى طويل واسع .. المهم أن يستر العورة .

وقف مع بعض الشباب فى ليلة صيفية ، فوجدوا فيه مادة للتسلية فى ليلة حارة من ليالى الفراغ والإجازة ..

ـ لماذا لا تتزوّج يا حمام ؟

أول مرة ـ فيما يتذكر ـ يُسأل سؤالاً ، لا يعرف له إجابة .

ـ لم أتزوّج ..؟!

ـ ألستَ رجلاً ؟

ـ رجلٌ .. وستون رجلاً يا ولد ..!

سكت قليلاً ثم أردف : لكن .. ما علاقة الرجولة بالزواج ؟

ـ كل رجل يجب أن يتزوّج .

ـ لازم .

ـ نعم .

فكّر .. صمت قليلاً .. نظر إلى السماء البعيدة : ممن يتزوّج الرجل ؟

ضحك الجميع ، بينما قال صبىٌّ نحيل طويل :

امرأة جميلة مثل ريم الفلا .

بدت المسألة صعبة الفهم : ما معنى ريم الفلا ؟

ـ غزالة جميلة من غزلان الصحراء .

تأملهم واحدًا واحدًا : لكن .. معظم نساء الحىّ .. بقرات سمان .

ـ كثير من النساء قبل الزواج غزالة .. وبعده بقرة .

ضحك الشبان .. بينما قال بفرحة طفل :

ريم الفلا .. وإلا فلا ..!!

مثل الأطرش فى الزفة كان لا يدرك سرّ ضحكهم المتواصل . شُغل بالموضوع الذى لم يفكر فيه من قبل .. ماذا يصنع بريم الفَلا ..؟!

سؤال غامض ..

سؤال عجيب ..

ماذا يقول ..؟

ماذا يفعل ..؟!

الرجال .. يتزوجون نساء ، لكنه سيتزوج ريم الفلا . ريم الفلا .. يا ريم الفلا . حاول .. حاول أنْ يقول كلمة .. أىّ كلمة ، حتّى لا يبدو خائبًا أمام هؤلاء العفاريت . فشلت محاولات التفكير .. والكلام . ما له وريم الفلا ..؟! نظر بعينيه الحولاوين يمينًا وشمالاً .. فوقًا وتحتًا ، فلم يكد يُبصر شيئًا .

ـ ماذا تفعل مع ريم يا حمام ؟

بدا عليه التوتر .. وهو يحك قفاه بيده اليُسرى . لم يكن قادرًا على معرفة ما يدور حوله . صمت .. وهم ينتظرون كلامه . فجأة .. بدأ يبكى . ارتفع صدره وهبط ، وهو يحاول أن يسكت

آلامًا ، لا يعرف مصدرها . حزن أولادُ الحارة .. أرادوا أن يضحكوا .. ويضحكوه ، مجرّد لهو برىء مثل الاستفهاية .

ذهب .. وحيدًا .. إلى حيث يعرف ـــ فى الظلام ـــ جحره الضيّق . المكان الوحيد الذى يتسع له .. ويجد فيه راحته . ركن ضيّق تحت سلم بيت الحاج رجب . لا طاقة أوْ شباك .. يكفى باب بلا قُفل ، فليس عنده ما يخاف عليه . يقضى حاجته فى مسجد قريب . بيتُ اللّه بيت من لا بيتَ له . حاول أن يسترجع الحوار الذى دار بينه وبين الأولاد ، فلم يستطع أن يحدد له معنى أوْ مغزى . كل ما بقى في ذاكرته : ريم الفلا .. وإلا فلا .

أراد أن ينام بعد أن تبوّل فى ظل حائط قديم . لكن النوم خاصمه .. ازداد إحساسه بضيق المكان وحرارة الجوّ . الموقف الذى حدث الليلة هزّ كيانه .. جرح مشاعره .. جعله يفكر فى أمور .. لم تخطر له على بال فى يوم من حياته ـ التى لا يعرف عدد أيامها أو سنواتها . لماذا كل الأولاد لهم أم وأب وبيت .. وهو مقطوع من خرابة .. كأنما هو نبتٌ شيْطاني ؟! يا اللّه .. إنْ كان لى أب ، فأين هو ..؟ وإنْ كانتْ لى أم ، فأين أجدها .. ولم هربتْ وتركتنى وحيدًا ..؟! لا يدرى .. هل هو المعذّب الوحيد .. فى هذه الدنيا ..؟! آه .. آه .. تذكر ـ رغم أن ذاكرته مثل غربال قديم ، تذكر أيام الملجأ السوداء ولياليه المرّة . تذكر .. النوم على البلاط ..

المشى بغير حذاء .. المرض الطويل المتكرر .. الطعام الكريه الذى لا يتغيّر فى الصيف أو الشتاء . المشرفون السجانون .

أخطأ مرة .. لأنه طلب أن يشرب فى أثناء طابور المساء ، فعاقبه المشرف بأن وضعه فى برميل ماء بكل ملابسه من المغرب .. حتى صباح اليوم التالى . الجوُّ بارد .. تعب تعبًا شديدًا ، فنام وهو واقف. منذ ذلك اليوم المشئوم .. تغيّرت حركة قلبه . عَلم ذلك بعد أن رقد شهرًا فى مستشفى الملجأ . لام المشرف أحدُ زملائه ، فردّ عليه :

ـ هؤلاء أولاد حرام .. لن نكون أحنَّ عليهم من أولاد الكلب ، الذين أتوْا بهم إلى هذه الدنيا .

رائحة عفنة تهبُّ عليه .. كلما تذكر سنوات الملجأ السوداء ..!!

* * *

اختفى حمام فجأة ..

أحسّ الجميع .. الرجال .. النساء .. الشبان .. الأطفال .. أن الحارة فقدتْ أحد معالمها الثابتة .. فقدتْ شخصًا له مكانة خاصة عند كل منهم .. بل إنهم كانوا يتفاءلون به عند دخول ولد إلى الامتحان ، أو خطوبة فتاة ، أو النجاة من الخطر عند السفر . حمام كان لا يرفض أىّ عمل .. ولا يطلب أىّ أجر . يكنس البيوت .. يشترى الخضروات والفاكهة والخبز .. ينظف السيارات .. يحضر

السجائر للكبار .. والحلويات للأطفـال . إن أعطيتـه شـيئًا رضـى .. وإن لم تعطه ذهب وهو يدعو لك . زهد مما فى أيدى الناس ، فأصبح هو الغنى وهم الفقراء . صار الجميع يظنون أنه إنسان مبروك .. وأن الله لا يغفر لمن يظلمه أوْ يعتدى عليه . علّق أحدُ الرجال الطيبين :

ـ قادر .. حكيم ، يجعل سرّه فى أضعـف خلقـه . ادعـوا اللّـه يـا عباد اللّه أن يرده سالمًا .

قالت خديجة لجارتها عديلة ذات صباح :

الولد حمام اختفى يا أم صابر .

ـ لا تخافى عليه يا أم مريم .. الحمام يطير ، ثم يرجع .

ـ أول مرة يغيب هذه المدة الطويلة عن الحارة .. الأولاد يسـألون كثيرا عنه .

ـ يا أختى .. تحت السواهى دواهى ..!

رجل من أهل الحىّ ..

روى له بعض أصدقائه أنه رأى حمام فى مولد سيدى أحمد البـدوى فى طنطا ، فطلب منه أن يعود إلى الحارة ، فردّ وهو غير ملتفت إليه:

ـ عندما يسمح سيدى .. مدد يا أهل بيت النبى .. مدد ..

رجل آخر ..

قال إنه شاهده فى مقابر الإمام الشافعى ، يسير خلف جنازة ، وهو يردد مع بعض الفقهاء :

يا دايم هو الدايم ولا دايم غير اللّه

بعد الدفن قال له : لماذا لا ترجع إلى الحارة .. يا حمام ؟

رد ـ دون أن يلتفت ـ وهو يأكل فطيرة من خبز الصدقة :

كلنا سوف نرجع .

ـ متى ؟

ـ عندما يشاء اللّه .

رجل ثالث ..

هو الحاج رجب أبو الغيط ـ كان فى زيارة بعض أقاربه فى الصعيد .. وذكر أنه رأى حمام بعينيه اللتين سوف يأكلهما الدود ، ينظف دورة مياه مسجد سيدى عبد الرحيم القناوى . سلم عليه بحرارة .. لكنه تجاهله .

ـ حمام .. أنا الحاج رجب الذى تسكن فى بيته .. ألا تعرفنى ؟

ـ المهم أن تعرف نفسك .

ـ متى تعود ؟

ـ بعد أن أجد ريم الفلا .

- من ريم الفلا هذه ؟
- علمها عند الله .

تركه .. ومضى ناحية المسجد ، وهو يردد : اللّه حي .. اللّه حي ...

* * *

غاب حمام ..

لكن أهل الحي لم ينسوه .. واختلفت الروايات والآراء في أسرار وجوده .. واختفائه . الرجال يرون أنه رجل صالح مبروك .. أرسله الله إلى أهل الحارة ، ليعطيهم درسا في الزهد والتقوى ، حتى لا تغرهم الحياة الدنيا .

النساء يذكرن في جلساتهن الخاصة أنه وليٌّ .. صاحب كرامات ومواهب :

- الأشياء التي كان يشتريها من السوق لا تنفد ولا تنتهي .
- إذا لمس طفلاً مريضًا ، فإنه يُشفى بإذن الله .
- حين يقابل تلميذًا يوم الامتحان ينجح بتفوق .
- عندما يحضر فرحًا ، فإن العروسين ينجبان البنين والبنات ، ويعيشان في التبات والنبات .

أما الشباب والفتيان ـ وهم أكثر أهل الحارة حزنًا وحسرة على فراقه ـ فقد أجمعوا على أنه إنسان غلبان مسكين ، لكنه لم يجد منْ يمسح دموعه فى هذه الأيام السوداء .

طار حمام ..

غاب طويلاً كأنما ابتلعته الأيام . بدأت حياته فى ملجأ صغير ، وانتهت فى ملجأ كبير . غير أن ذكراه لم تغبْ عن أهل الحيّ الذين لم ينسوه ، وظلوا يتحسرون على حمام الذى لم يعرفوا كراماته إلا بعد أن رحل بعيدًا . أولاد الحارة كانوا يرون أنهم السبب فى هروبه من الحارة .. ليتهم ما حدثوه عن ريم الفلا ..!!(*)

ضاع حمام ..
نسيه الناس فى الزحام .
سبحان من له البقاء والدوام .

(*) مكة المكرمة ـ الثلاثاء ٣١ أغسطس ١٩٩٩ م .

الرقص ..
فوق الرمال

ظ لّــــتْ ..

عادة أبى ـ لسنوات طويلة .. هى كل عمرى ـ أن يوقظنى فى الصباح قبل أن يذهب إلى عمله . عندما كنت صغيرًا .. كانتْ قُبلته هى المنبه ـ الذى أستيقظ على إيقاعه الحنون :

ـ صباح الخير .. يا صلاح .

ـ صباح النور .. يا أعظم بابا فى الدنيا .

ـ العباقرة يقومون مبكّرين .

ـ مازلتُ صبيًا فى الخامسة عشرة يا بابا .

ـ لكنى أتوسّم فيك الخير .. أنت البكرى ، وإن شاء اللّه ستكون صالحًا كما أسميتك .

ـ أتمنّى أن أكبر بسرعة يا بابا .

ـ لماذا .. يا حبيبى ؟

ـ حتى أساعدك فى حمل أعباء الأسرة .

ـ بارك اللّه فيك .

قبل أن يودّعنى كان يضع بعض القروش القليلة تحتَ مخدّة السرير .. ثم يمضى فى هدوء ورضى ، وهو يدعو لى .

مرَّت حوالى عشر سنوات . لم أستطع أن أكون طبيبًا كما رغب أبى الحبيب .. أو ضابطًا فى الجيش كما أرادت أمى العزيزة . المجموع الكبير فى الثانوية العامة مرتبط بالدروس الخصوصية . نحن أسرة كبيرة لا مورْد لها سوى مرتب أبى الأستاذ عادل عبد الموجود - الموظف بمصلحة المساحة بالدقى . سبعة وتسعون جنيهًا تضيع بين إيجار الشقة .. ومصاريف الأكل والملابس .. وبعض الضروريات . لاحظتُ منذ مدة ليستْ بالقليلة أن أبى امتنع عن التدخين بسبب يده القصيرة . علَّقتْ أمى على هذا الحادث السعيد قائلة : ما يحتاجه البيت يحرُمُ على الجامع ..!

قادتْنى أوراق مكتب التنسيق إلى رحاب كلية الآداب فى جامعة القاهرة . اخترتُ قسم الاجتماع ـــ دون أن أدري لماذا ؟! بعد أن نجحتُ فى السنة الأولى كنت أحسّ بالزهوْ وأشعر بالطموح حين أتعرّف على بعض علماء الاجتماع فى القديم والحديث ، الذين أسهموا فى حلِّ المشكلات الاجتماعية ، فعالم الاجتماع طبيبُ البشرية . كبرتْ الفكرة فى رأسى فترة من الزمان . شيئًا .. فشيئًا أخذتْ الفكرة تتحطم بسبب عجزى عن شراء بعض الكتب المطلوبة للدراسة . بدأ الأمل ينكمش .. وضاعت من ذاكرتى الأحلام .

حصلتُ على الشهادة ، وأصبحتُ - بالنسبة للأسرة على الأقل - مشكلة اجتماعية فى حاجة إلى عالم مثل ابن خلدون أوْ .. إميل دور كايْم أو .. مالتوس أو .. ليفى شتراوس . اليوم لا مكان لى سوى الرصيف . بالأمس كنتُ طالبًا جامعيًا .. أذهبُ إلى الجامعة كل يوم من الصباح إلى المساء . البيتُ بحجراته الضيِّقة وحارته الكئيبة ممل . الفقر وإزعاج إخوتى الصغار يجعلانه أكثر مللاً .

ظهرت فى الظلام نقطة ضوْء .

لم أكن أعرفُ أن المعاشرة تولد الألفة ، والعادة تؤدى إلى المحبّة . ارتبطتُ بفتاة طيبة - اسمها عفت مجدى - كانت ترى أن ما بيننا حالة حب وارف الظلال ، سوف تنتهى عند المأذون . أما أنا فكنت أعتقد .. أنها زمالة عارضة ، تموتُ خلف سور الجامعة . هذا السور الصخرى بحديده المدبب مثل سور الصين العظيم ، يفصل بين عالميْن متباعديْن : عالم الأحلام الوردية ، وعالم الكوابيس المزعجة . هنا - فى الجامعة - آمال ذهبية بغيْر ضفاف ، وهناك - فى المجتمع - مشكلات وصعوبات وأزمات .. لا يعلم مداها سوى علاّم الغيوب ، ومفرج الكروب ، وربّ أيّوب .

- صلاح ..

- نعم يا عفت .

- لم لا تأخذ الأمور بجديَّة ؟

- كيف يكون المرء جادًا فى عصر العبث والعوْلمة ..؟!
- فكرْ فى مستقبلنا .
- مستقبلنا خارج السور .
- تحاول أن تطفئ كل شمعة أوقدها .. أنت لا تحبّنى .
- الخبز قبل الحبّ .. يا صديقتى .

فتح أبى باب الغرفة - بحكم العادة الصباحية ، لكنه تردد فى اللحظة الأخيرة ، ولم يشأ أن يوقظنى . أحسستُ وقع خطواته . شددتُ الملاءة الزرقاء ، وغطيتُ جسدى من الرأس إلى القدم .. تحاشيًا لأحداث المأساة التى تدور كل صباح . سمعته يخاطب ماما بلهجة ساخرة :

ألا يريد حضرة العمدة أن يقوم من النوم ؟!

أجابتْ .. وهى تقلّب ملعقة صغيرة فى كوب الشاى :

لم تريده أن يقوم ؟

- يبحث عن عمل فى أىّ مكان .
- دله على الطريق .. أنت أبوه .
- ألا يكفى أننى أعوله خَمْسًا وعشرين سنة .
- لا تعكر دمك يا أبا صلاح .. غدًا ستُفرج .
- متى .. متى يأتى غدًا هذا ؟!

خرج أبى غضبان أسفًا . لم يتناول كوب الشاىّ الذى كانت تعدّه أمى . أبى مسكين .. وأنا مظلوم .. وأمى حائرة .. مثل الملعقة التى تحركها فى الكوب الصينى . قل لى ماذا أعمل يا بابا حتى أحل لغز تراجيديا الأخطاء ؟! عاوزين بيضة من الفرخة ، والفرخة عايزة قمحة ، والقمحة عند الفلاح ، والفلاّح عايز منشار ، والمنشار عند النجار ، والنجار عايز سلم ، والسلم عند المعلم ، والمعلم شكله مبلّم . مدد .. مدد يارسول اللّه .. مدد ..!!

أمى غير متعلمة .. ولا تعرف شيئًا خارج جدران الشقة ، لكنها تدرك ـ بالفطرة ـ أنّى فى محنة .. وأن المحنة ليس سهلاً حلّها ، لذلك لا تترك لأبى فرصة أن يختلى بى وحده . حاولتْ أن تقدم لى كوب الشاى الذى أعدته لبابا ، بدأت تأخذ رشفة سريعة ، فوجدْت أن طعمه مر ، لأنها نسيت أن تضع السكر .

رنّ صوت التليفون مرات عدة . أعرفُ من تطلبنى فى هذا الوقت المبكر بعْد خروج أبى . أصبحتُ حالةً ميئوسًا منها لكل من أتعامل معه . أحضرتْ أمى التليفون ، وربتتْ على كتفى بحنان . نظرتْ إلىّ بمودّة ، وهى تحمل السماعة .. أملاً فى أن تنسينى المكالمة العاطفية بعض مشاعر اليأس والإحباط التى أعانى منها ..

ـ عفت.. تريد تكلمك.

ـ قولى لها خرج .. لا .. قولى مات .

ـ سلامتك يا كبد أمك . أعوذ بربّ الفلق ، من شرّ ما خلق .

خرجتْ حزينة ناحية المطبخ .. وهى تدعو اللّه أن يحمينى من شرّ الوسواس الخنّاس ، الذى يُوسوس فى صدور الناس .

مددتُ رجلىّ علَى السرير ، وأسندت ظهرى إلى الحائط . وضعتُ سماعة التليفون بجوار أذني ، وأنا أحاول التخلص من جاكتة البيجاما ..

ـ صباح الخير يا صلاح .

ـ ....

ـ ألا تريد أن تكلم عفت حبيبتك ؟

ـ تعبان .. تعبان جدًا .

ـ حتى وأنا أكلمك ..!!

ـ ....

ـ أنت تتدللُ ، لأنى صارحتك بحبّى .. أمى كانتْ دائمًا تحذّرنى .. الفتاة التى تتعجل وتعرض حبّها على رجل ، تندم فى النهاية .

ـ ليتكِ سمعتِ كلامها .

ـ ألا تحبنى يا صلاح ..؟!

ـ لستُ أدرى .

ـ أنا مستعدّة لعمل أىّ شىء من أجلك .

- لم أعد أصلح لشىء .

- حتى لو كان الحل أن نتزوج عرفيا كما أردت .. صلاح لم أعد أستطيع أن أبتعد عنك .

- لأنى أحبك .. لا أقدر .. لا أقدر أن أخدعك .

أغلق التليفون دون استئذان .. ودون تحديد موعد للقاء .. بل حتى دون وداع . أصبح يرى الدنيا الكبيرة من ثقب إبرة . تحطمت أحلام الجامعة على صخرة المجتمع . عفت يا حبيبتى .. لا أقدر أن أخدعك .. لا .. لا أقدر .

تأمل حجرة فقيرة الأثاث ، ينام فيها هو وأخواه صابر وسعيد اللذان ذهبا إلى المدرسة الإعدادية . بينه وبين هذه الحجرة الكئيبة عِشرة قديمة ، فقد شهدت مرح الطفولة ، وعبث الصبا ، وطموح الشباب . وهى اليوم شاهد يدلى بشهادته على .. مرحلة الضياع بعد أن صار عاطلا بليسانس آداب . لو لم يكمل تعليمه لبحث عن أى عمل : صبى ميكانيكى .. عامل بناء .. جرسون فى مقهى .. المهم الحصول على ثمن رغيف الخبز . لا يستطيع أن يجد عملا بالليسانس ، كما لا يقدر على القيام بعمل مهنى . ليس مع المتعلمين أو الأميين ، لكنه حاصل على شهادة جامعية مع إيقاف التنفيذ . عفت ستلقى نفس المصير ، وتصبح خادمة فى بيت

أبيها .. بعد أن كانتْ طالبة مجتهدة ومقررة اللجنة الثقافية فى كلية الآداب .

فى مثل هذا الوقت من صباح كل .. يوم يذْهب أبى ـ الذى يعُول نصف دستة من الأبناء ـ إلى عمله . كان يتوقع أن أساعده فى مصاريف البيت ، أوْ على الأقل أريحه من مؤونة الإنفاق علىّ . يطير البرج الباقى من عقله لو قلتُ : أحب .. وأريد أن أتزوّج . الموظفون فى الأرض .. ومع ذلك ليتنى منهم ..!!

فى مثل هذا الموعد أيضًا تنظّف أمى المطبخ والبيت ، ثم تذهب إلى السوق لشراء ما نحتاجه لوجبتىْ الغداء والعشاء بأرخص الأثمان ، حتى تدبّر مَصير الجنيهات القليلة التى تنفق منها .

بعد أن تخرج الأم .. أبقى وحيدًا ـ مثل عفت ـ وتحترق أسلاك التليفون من مكالماتنا العاطفية التى قد تستمر ساعتيْن على الأقل .

أحسستُ أن الحجرة تضيق بى .. وأن البقع الرطبة فى الجدار تبصق على وجهى . كل من فى البيت له عمل ، أما أنا فعاطل عاجز .. لا أقدر إلا على بيْع الوهم فى سماعة التليفون . بيّاع كلام .. أخدع به القلب الوحيد الذى أحبّنى . أبى حيران .. وأمى حزينة .. وعفت غاضبة . ماذا أعمل .. دلنى يا وزير الشئون الاجتماعية ..؟!

لا بد أن أفعل شيئًا .. الآن .. الآن . لبستُ ملابسي ـ دون أن أغسل وجهي ـ فتحتُ دولاب أمي .. أخذتُ بعض القطع الذهبية القليلة التي تملكها . سامحيني يا ماما .. أعرف أن قلبك كبير ، هو المكان الوحيد الذي يتّسع لي عندما تضيق بي الدنيا .

مرَّتْ على خاطري صورة باكية لعفت . اتخذت قرارًا .. خرجتُ مسرعًا .. لا أعرف إلى أين سأذهب .. ولا متى سأعود ....؟! *

(*) مكة المكرمة ـ السبت ٤ سبتمبر ١٩٩٩ م .

جَفَّتِ الأمطار

وَ قَ فْ تُ .. فى الليل .. وحيدًا ..

بمحاذاة نهر النيل . القاهرة حين يبسطُ الليلُ ذراعيْه حولها ، تُمسى مدينةً أخرى ، كلما تقدَّم الليل .. اختفى الزحام والضجيجُ وصخبُ المواصلاتِ والكائنات البشرية .

القاهرة .. مدينة العجائب والغرائب ، تمتدُّ طولاً في التاريخ سبعة آلاف سنة ، وتتسع عرضاً في الجغرافيا ، لتضم ثلاث محافظات كبرى من محافظات برِّ مصرَ .. تتعانقُ فيها التلال والصحراءُ والأرض الزراعية . لكن القاهرة لا تكمنُ أسرارها .. في التاريخ أوْ الجغرافيا فحسب ــ وإنما تكمن معجزتها السحرية في بنيتها الاجتماعية وتركيبتها السكانية ، حيث يعيش فيها ثمانية عشر مليونًا من البشر .. يمثلون الطبقات والفئات الموجودة في العالم أجمع .. المتدرجة من القمة إلى القاع .. وربما ـ أيضاً ـ إلى ما تحتَ القاعِ .. !!

جميل صلاح الدين ..

شاب من سكان هذه المدينة ــ القارة .. التي تزخرُ بالأكواخ والقصور .. والبيوت والقبور . على قدر حبّي لها ، يكون عتابي

عليها ، لأني واحدٌ من الضائعين المضيَّعين فيها .. وتلك حكايـة بـلا بداية ولا نهاية ، أَملُّ أنا نفسي من محاولة تذكُّرها ..!!

أمـواج النهـر الخـالد .. تنعكـسُ عليهـا أضـواء فنـدق المرديـان ، ويلفها إطار أسود من ظلام الليل . غاب القمر .. ولم تستطع آلاف النجوم أن تُغني عن القمر . في هذه الحياة الدنيا لا شئَ .. يُغني عـن غـيره . العـين لا تسـدُّ مكـانَ الأذن ، واليـد لا تغـني عـن الرجـل ، والصدر لا يقوم بوظيفـة البطْن ، وحنـان الأم لا يُغـني عـن حِكمـة الأب . فكيف .. كيف يطلـب مـني أهلـي وأصدقـائي .. أن أنْسـى ليلى .. ؟! أنسى ليلى .. هل هذا معقول .. يا جميل ..؟!

قالتْ أمي .. ذات مساء حزين .. والجرح ما زال ينزف :

ـ انسها يا ولدي .. حتى تستريح .

ـ كيف ..؟!

ـ ليلى تزوجتْ .. أصبح لها بيتٌ ورجل .. إذا كنـت تحبّهـا بحق فادعُ لها .

ـ أدعو لمن باعتني .. وذبحتني ..؟!

ـ الصبر .. الصبر ـ يا بني ـ دواءٌ وشفاء . اللهـم اجعلنـا مـن عبادك الصابرين .

توقفتُ حتى لا أَصدم أمي .. ولا أجـرح مشـاعرها .. ولا تُفجـع في ابنها البكر . أمّي سيدة عظيمة .. تصنعُ من الفول عشر أكـلات

متنوعة .. لذيذة . ذهب عصر الفول يا أمي ودخلنا في عصر الغُول .. وأكلات الهمبورجر ، والفرايد تشكنْ ، وماكدُونالد ، ووِمْبي .. كله TAKE AWAY ..!

من فضل الله يا أمي أنك لا تخرجين إلى شوارع الأسفلت ، ولا تعرفين شيئاً عن قوانين الخصخصة التي أحالتْ أبي إلى التقاعد المبكر .. وهو لا يزال في الخمسين من عمره . الدنيا أصبحتْ شريط فيديو كليب .. زحمة يا دنيا زحمة .. زحمة ولا فيك رحمة ..!!

ليلى .. يا قدري الحزين ..

في هذا العصر الكئيب !! لماذا .. لماذا زوَّجك أبوك ، لرجل غني ، يملك آلاف الدولارات .. ويعرف لغة الآلات والحاسبات ..؟! أبوكِ معه حق .. وأنتِ معذورة ، لكني لا أستطيع أنْ أغفر لك . أنت ابنة هذا العصر الموبوء .. لكنك فهمت ـــ سريعاً ـــ أسرار اللعبة . لماذا تربطين مستقبلك بمصير شاب حائر بائر .. تخرَّج مثلك في كلية الزراعة . شهادة البكالوريوس لم تعد تساوي ثمن الحبر ، الذي كُتبتْ به . طويتها .. ونسيتُها .. واشتغلتُ عاملَ أدوات صحية مع مجموعة من الزملاء ، نعمل في مهنة البناء .. مع الأسمنت والبلاط والسيراميك والحنفيات والأحواض والبانيوهات وقواعد المراحيض والزيت والبوية والمعجون والفرش الناعمة والخشنة .

ضاعتْ كل الأحلام الورديـة . نسـيتُ لقـب « مهنـدس » الـذي كـان يحلـو لأمـي أن تقولـه لي دائمـاً . أصبـح اسـم الشـهرة .. « الأسطى جميل سيراميك » . ميـاه النهـر تجـري ..أمـامي .. تـتراقصُ فيها ألوان الطيف . لكـن ميـاه الدنيـا كلهـا ..تعجـز عـن أن تطفـئ نيران الغضب والجنون . ليلى العامريـة .. ظلمـتْ قيـس الحبيـب .. وظلمتْ ورد الزوج .. وظلتْ تبكي إلى أن ماتتْ عذراء . فلا هـي استراحتْ .. ولا أراحتْ .

التاريخ يعيد نفسه .. ولكن

بصورة أبشع وشكل أفظع . ليلى عبد العزيـز معبودتـي الخائنـة ، أحببتها أربع سنوات .. ثم ضاعتْ في أربعة أيام . كانتْ تـأتي معـي إلى البيت .. أحبتها أمي .. وتعرّف عليها إخواتي . صـارت واحـدة من نسيج الأسرة . حين تراها أمـي الطيبـة ، كـانتْ تحتضنهـا بحنـان مبتسمة :

ـ أهلاً بعروسة ابني .

عرفتُ مـن إحـدى الزميـلات أن رجـل أعمـال ثـري تقـدّم لهـا ، فرحَّب الأب .. وفرحتْ الأم ، واستسلمتْ ليلى ـ رغـم أنهـا هـي التي أشارتْ عليَّ بأن أعمل .. أيّ عمل ، حتى أجمع المهر .. وأتقدم لخطبتها . لم تستطع أن تصمـد .. أوْ تقـاوم .. نسـيتْ أو تناسـتْ .

فضلتْ رجل الأعمـال على عـامل السـيراميك . ضـاع الحـبُّ بـين السـيارة المكيفـة .. والشـقة الفـاخرة .. والـدولارات المزغـردة .. ورجل عجوز مثل الخاتم في أصبعها .

أشعلت سيجارة ..

مع الدخان الذي يتبدد في الظلام ، أخذتُ أرقـبُ بـاخرة سـياحية في الضوء الشـاحب .. موسـيقى راقصـة .. وصـوت سـوقيّ خشـن يغني :

يـــاللّي بِتلْعَـــبْ بالبُوليتكـــا　　افهـــمْ بقَـــى ربٌّ يخلّيكـــا
لــمٍّ الشــملْ بــلاشْ تلكِيكــا　　وبـلاشْ رُوسـيا ولا أمريكـا
عايزْ تاكلْ ، كلْ من قَمحـك　　عايـزْ تِعزفْ ، اعزفْ سِيكا
ياللي بتلعْ بالبوليتكا

أبي صار مقهورا .. مكسورا ..منذ استغنوا عنه في شركة الأدوية بعد خصخصتها . كلما حـاولت أن أتحـدث معـه ، يتهـرب مـني .. كأنما سُلبتْ إرادته يوم أحيل إلى المعـاش المبكـر ، وتحـول مـن رجـل فاعل فاهم .. إلى شخص مغـترب ضـائع . صـار رجـلا مـع إيقـاف التنفيذ ..!!

سألني صديقي حسن إسماعيل في أثناء العمل :

ـ ما آخرتها معك .. يا مجنون ليلى ؟

ـ تريد أن تقول شيئا ؟

ـ إذا ضاعت ليلى .. فهناك ألف ليلى .

ـ تلك هي المشكلة يا صديقي .

أدرك جيدا .. أن الزمان

اختلف ، لكني عاجز عن تغيير دماء قلبي .. ومشاعر وجداني . صرتُ حالة ميئوسا من شفائها مثل فيروس (س) ، والإيدز ، والسرطان . أتمنى أن أرى ليلى مرة واحدة .. لحظةً واحدة .. أسألها سؤالا واحدا :

ـ لماذا بعتِ حبنا لأول مشترٍ ..؟!

تخيلتها تبتسم ساخرة :

ـ لا أحد يستطيع أن يقف في وجه الدولار .. يا عزيزي .!!

لا أدرى .. لماذا كلما تذكرتُ ليلى والسنين الخوالي ، أحسست نشوة عاصفة ، تهز كياني .. تذهب بعقلي ..؟! ليلى الكون كله .. ولا ليلى هناك . أكاد أشك .. هل لا يزال هناك شئ اسمه الحب في هذا الزمان ..؟ ليلى .. ليلى .. وهم أم حقيقة .. ؟! .. أنا .. أنا عاقل أم مجنون ..؟! أدركت ـ أخيرا ـ أن الجنون بعينه أن أسأل نفسي مثل هذا السؤال ..! !

سألتني أمي ـ التي تعرف قدر همي ـ وأنا أستعد للخروج في ساعة مبكرة ، وهي تضع أمامي كوبا من الشاي :

ـ أنت شاب عاقل وذكي وابن حلال .. آه .. آه .. لو أعرف مشكلتك يا نور عيني .

ابتسمت ساخراً : اسألي صندوق النقد الدولى .

ـ ماذا تقول يا ابني ..؟

ـ لا شئ .. فقط ادعي لي .

بينما أنا غارق في أحلامي

وأوهامي على شط النيل في الظلام ، اقترب مني ـ دون أن أحسَّ ـ رجل عجوز بائع ترمس . ربت على كتفي في حنان أبوي . أيقظني الرجل الطيب من عالم بعيد غريب .. وهو يتأملني في دهشة :

ـ كم الساعة الآن يا بني ؟

ـ الواحدة بعد منتصف الليل .

ـ لماذا تقف في البرد حتى هذه اللحظة المتأخرة ؟

نظر إليّ في صمتٍ .. كأنما قرأ بعض ما في وجهي الحزين . غاب لحظة .. ثم عاد بورقة ملأها بالترمس والحلبة . قال وهو يقدّمها مبتسماً :

- كلْ .. الترمس والحلبة ، يروّقان الدم .

حاولت أن أضع يدي في جيبي .. وأخرج له جنيهاً .. لكنه رفض . تأمّلني قبل أن يمشي ، وقال مبتسماً في حنان :

- لدنيا لا يزال فيها خير يا ابني ..!! *

(*) مكة المكرمة - الأحد ٢٤ أكتوبر ١٩٩٩ م .

رسـالـة
إلى معـالي الـوزيـر

سَ عادة | **معالي وزير العدل في بلاد مصر المحروسة**

سلاماً و تحية منّي .. ومـن أبنـاء بلـدي الطيِّبـين ، الذيـن يؤرِّقهُـم الشـوقُ إلى العـدلِ والحريـة والمسـاواة ، لأن أرضنـا الطيبـة عوَّدتنـا العطاء ، ونيلَنا العظيم دائم الفيضان . كما أن مصرَ ــ أمَّ الدنيـا ــ يجب أن تظل دوْماً ـ كما كانت ـ منارةً للعـالم ، وسـاحة للعـدل ، وقدوة للبشر أجمعين .. إلى أبد الآبدين .

شجعني على كتابة هذه الرسـالة إليـك عـدة أمـور عامـة .. بقـدر ما هي خاصة في الوقت نفسه . فأنا وأنت ـ يا معـالي الوزيـر ــ قـد تخرَّجْنا في كلية واحدة ، هي كليةُ الحقوق ، التي كانتْ تُسمَّى كليـة الوزراء . وقد صدق القولُ بالنسبة لك ، غيْر أنه أخطأ بالنسبة لي . لماذا .. لست أدري . لكن يبقى أن تلك الكلية ــ الـتي أنتسـبُ أنـا وأنتَ إليها ـ هي المعهد الذي يُعلّم النـاس مبـادئ القـانون وقواعـد العدل . فالمحامي أول واجباته الدفاع عـن المظلـوم ــ أيّا مـا كـانتْ طبيعة الظلم التي تقع عليه ــ حتـى يرفـع عنـه الظلـم ، ويُعيـد إليـه

الحق . الحياةُ بلا قانونٍ غابة .. يأكل القويُّ فيها الضعيفَ ، ويسلب صاحب السلطان حقَّ من لا سلطانَ له . أقول لك هذا مع يقيني الثابت بأنه لا عدلَ إلا إذا تعادلتْ القوى ، وتساوت الرؤوس ..!

ورغم ذلك فإني لم أقنط من عدالة السماء ، ولم أيأس من أن أجد لديكم ـ يا معالي وزير العدل ـ حلاً لمشكلتي وراحة لمأساتي ، خاصة أنني وإياك نشتركُ في أمور ثلاثة هي : المواطنة ، وأداءُ الخدمة العسكرية ، ودفع الضرائب ..!!

إنني ـ مثل كثير من أبناء هذه البلدة الطيبة ـ مواطنٌ صالح ، يحبُّ مصره ، ويؤدي ما عليه من حقوق .. أملاً في أن تتحقق له ولأبنائه بعض المطالب والآمال ـ وأعتقد أنك تُدرك يقيناً أن مطالب أمثالي من الفقراء جدّ متواضعة ، يسهل حلها في ظلّ شعار حكومتنا الرشيدة ، التي يقول رئيسها إنه نصير الفقراء والمظلومين .

معالي الوزير ..

حاولت أن أتصل بكم أكثر من مرة .. وعن طريق أكثر من وسيلة ، فلم أوفق في هذه .. أو تلك . حيثُ ذهبْتُ إلى ديوان الوزارة ، فاعترضني أكثر من رجل شرطة وأمن . بشقّ النفس

وطول الصبر .. وصلتُ إلى سكرتير مكتبك الذي يرتدي قناعَ بهلوان ، فسألني متجهماً :

ـ لماذا تريد مقابلة مَعالي الوزير ؟

ـ مسألة شخصية خاصة .

ـ من أيّ نوع ..؟!

ـ هذا ليس شأنك .

قال ببرود .. وهو يحرك قرص التليفون : أنت قريبه ؟

ـ لا .

ـ من بلدته ؟

ـ لا .

ـ موظف في الوزارة ؟

أجبتُ .. وأنا أجففُ عَرقي بالمنديل : لا .

ـ على أي أساس إذن تكون بين معاليه وبينك مسائل شخصيَّة ؟!

نظرت إلى وجه الثعلب ، كأنما يريد أنّ يقول : صعلوك يريد أن يقابل الملوك ..!!

قلت وأنا أضع يدي على صدري : من أجل خاطري .. إنها مسألة خطيرة .

- ومع ذلك لا تريد أن تصرِّح بها .. قد أستطيع مساعدتك .

- أعرف .. أنك لا تستطيع .

- أجندة معالي الوزير مُزدحمة - كان الله في عونه ، لذلك أنصحك بكتابة رسالة .. وسوف أوصِّلها إليه .

عزَّتْ عليَّ نفسى ، فأنا أدرك مصير رسالتي ، لو وقعتْ بين يديْ هذا الثعلب . عدتُ في اليوم التالي بعد أن كتبت الرسالة في البيت . لكن سكرتير مكتبك أصدر أمراً بعدم دخولي مبْنى الوزارة بحجة أنني مجنون ..!! تصوَّرْ يا معالي الوزير أن مجرد الرغبة في مقابلة مسئول في بلادنا العزيزة تُعدُّ جنوناً ..!!

هكذا .. سُدتْ في وجهي أبوابُ الوزارة ، لكني لم أيأسْ ، فحاولتُ الوصول إليك عن طريق البيت . طلبتُ من شرطي الحراسة أن يستأذن لي بالدخول .. فرفض بشدة ، وقال بصرامة - وهو يتحسس مسدسه :

- ابعدْ عن هنا .. وإلا ضربتُ في المليان ..!

دلَّني مكوجي عجوز في الشارع على السائق ، لكنِّى اكتشفتُ بعد حوارٍ وجدل أنه شرطي أيضاً في ملابس مدنية ..!!

أخيراً .. هداني عقلي إلى فكرة .. حسبتُ أنها حتماً سوف توصلني إليك ، وتجمعني بك . صليتُ في أقرب مسجد إلى بيتكم العامر معظم الفروض ، فلم أجدكم تذهبون إلى المسجد حتى في صلاة الجمعة .

بين الوزارة والبيت ..

كنتُ كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وباءتْ كل محاولاتي بالفشل مدة شهرين من الزمان ، أهملتُ فيها شئون مكتبي للمحاماة ـ مصدر رزقي الوحيد ، فالمحاماة طريقها مسدودٌ .. لا تسمح بالترقّي ، ولا يجوز الجمع بينها وبين أيّ عمل حكومي ، لأن النقابة لا تسمح لموظفٍ بمزاولة المهنة .

أحسستُ بانكسار نفسي ، لأن من يدافع عن المظلومين لا يجد منْ يدفعُ عنه الظلم . الشعورُ بالظلم يا معالي الوزير .. إحساس مُدمِّر ، قد يؤدي إلى طريقين لا ثالثَ لهما : الثورة أو الجنون ..!!

معالي الوزير ..

حتى لا أضيِّع وقتَ سعادتكم أدخل في الموضوع مباشرةً ، حيث إن خير الكلام ما قلْ ودلّ . كما أنني أرغبُ في أن أنال احترامكم .. قبل عطفكم .

خلاصة القول يا سيدي :

أنا أب .. وأعول أسرةً مثلك ، وانْ كانتْ أسرتيّ تتكون من سبعة أبناء وأسرتك من ثلاثة . وقد حرصتُ — ولا زلتُ — على تعليم أبنائي كلهم ، فالعلم سبيلنُا الوحيد لدخول القرن الواحد والعشرين ، والتلاؤم مع عصر العولمة والمعلومات واتفاقية الجات . كما أنه يرفعُ الكائن الحيَّ من زُمرة الحيوان الناطق إلى مكانة الإنسان الفاعل .

منذ سنتيْن تخرج ولدي الكبير فؤاد في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية . كنتُ أنا وهو . نطمحُ في أن يعمل في السلك الدبلوماسى ، وأن يحقق الابنُ ما فشل فيه الأب ، بكل أسفٍ كان مستقبلُ الابن أسوأَ من مصير الأب . ولم نستطعْ أن نجد له عملاً في وزارة خارجية .. أو داخلية .

لا حظتْ أمه المسكينة ما نحن فيه .. فقالت :

- الولد لنْ يعمل إلا بواسطة . ألا تعرف أحداً في الحكومة أو مجلس الشعب .. أوْ حتى صحفي ؟

كذبتُ على أمّ العيال قائلاً : لا .

- سوف أذهب إلى قريبي ، الأستاذ برعي .. بُرعي بك عويس ، عضو محترم في مجلس الشعب .

- أولاً الأستاذ برعي ليس قريبك ، إنه مجرد قريب زوجة عمك ، كما أن هذا النائب المحترم مُجرَّد حاصل على دبلوم صنايع . ثالثاً وهو الأهم .. أنه على استعداد لتقديم أية خدمة لمن يدفع ، بحجة أنه يقسِّم الرشْوة بينه وبين المسئول . فماذا نملك حتى ندفع يا أم فؤاد ..؟!

- لا تعقّد المسألة .. دعْني أحاول .

- لا .. وألف لا .

ركبت رأسي - مثل دون كيشوت - بدرجة جعلت الولد فؤاد ، يشك مثل أمه لفترة أنني متقاعس عن مساعدته . انهارَ المثل الأعلى للأب المكافح .. في نظر الابن المأزوم .

بعد مدة ليست بالقليلة .. استطاع فؤاد أن يجد لنفسه وظيفة محاسب في فرن بلدي ، يشوي قلبه ، ويحرق جلده من أجل خمسة

وسبعين جنيها في الشهر ، نشتري بنصفها خبزا من الفرن . كنت اقرأ في ملامح وجهه حسرة أليمة ، لأنه يزاول عملا ، لا علاقة له بعلمه ، ولم يكن يتوقع في يوم من الأيام أن يكون هذا مصيره . يبدو أن الفقر .. والقهر أصبحا وراثة في بلادنا العزيزة ..!!

معالي الوزير ..

حدث كل هذا .. لكنه لم يضعف من عزيمتي ، ولم يهز من إيماني بالوطن ، ولم يجعلني أشك في عدالة حكومتنا الرشيدة . غير أنه طرأ موقف جديد ، جعلنى أفكر مثنى وثلاث ورباع ، فقد حصلت ابنتي كوثر على بكالوريوس كلية التجارة بتقدير « جيد جدا » منذ خمسة أشهر . وهى ترغب فى أن تحصل على عمل بعد أن أمضت في مسيرة التعليم ستة عشر عاما .. وحمَّلتْ ميزانية الأسرة أعباء يصعب حصرها .

إن أول حقوق المواطنة .. إيجاد عمل مناسب ، يتلاءم مع قدرات المواطن وكفاءته . وإذا كان فؤاد باعتباره رجلا .. يستطيع أن يتحمل عبء العمل في أي مكان .. فماذا ستفعل كوثر إنْ لم تجد مكانا مناسبا ..؟! إن كوثر فتاة شابة ، وأنت تعلم يا معالي الوزير

ـ بلا شك ـ مدى خوف الأب على ابنته ، فالبنت ـ مهما تعلمت وتثقفت ـ مخلوق ضعيف ، رقيقة مثل الوردة ، سهلة الكسر مثل البيضة ، وشرفها مثل عود الكبريت .

افتني يا وزير العدل الموقر .. فقد تحملت احتراق ابني بنار الفرن ، لكن ابنتي وأنت مسئول عنها مثلي ـ ماذا أعمل لها .. وكيف السبيل إلى وجود وظيفة لها في دولاب حكومتكم الرشيدة ، حتى تجد عملا محترما ، يساعدها على العيش الكريم ، وينمي شجرة حب الوطن في ضميرها ..؟! فقد قرأتُ ذات مرة في أحد كتب جبران « أولادكم ليسوا لكم .. أولادكم أبناءُ الحياة ».

معالي الوزير ..

تلك هي شكواي إليك ـ يا وزير العدل ـ فهل يعتدلُ الميزانُ ، وتُرعى واجباتُ الزمالة ، وتُؤدَّى ضريبةُ المواطنة . هذا ظنّي فيك .. وإلا كنتُ ـ كما تزعم زوجتي ـ رجلاً طيباً ، يعيش في زمان غيْر زمانه ..!!

رحم الله عصراً كان يحاسب فيه الحاكم ولاَته .. ويهددهم قائلا :

« لقد كثر شاكوك ، وقلَّ شاكروك ، فإما اعتدلتَ ، وإما اعتزلتَ »

اللهم بلغت .. اللهم فاشهد ..!

والسلام على من اتبع سبيلَ الهدى ، وعرف طريق الحق .. والعدل . *

أخوكم في الوطن

عوض عبد الهادى

(*) مكة المكرمة ـ السبت ١٨ أغسطس ١٩٩٩ م .

مؤلفات د . طه وادي

أولاً : الدراسات الأدبية والنقدية :

1 ـ الشعر والشعراء المجهولون في القرن التاسع عشر : دار المعارف ـ الثالثة ـ 1995 .

2 ـ جماليات القصيدة المعاصرة ـ لونجمان ـ الرابعة ـ 2000 .

3 ـ شعر ناجي : الموقف والأداة : دار المعارف ـ الخامسة ـ 1994 .

4 ـ شعر شوقي الغنائي والمسرحي : ـ دار المعارف ـ الخامسة ـ 1994 .

5 ـ صورة المرأة في الرواية المعاصرة : دار المعارف ـ الخامسة ـ 1994 .

6 ـ ديوان رفاعة الطهطاوى ـ دار المعارف ـ الرابعة ـ 1994 .

7 ـ دراسات في نقد الرواية : ـ دار المعارف ـ الثالثة ـ 1994 .

8 ـ الرواية السياسية : ـ دار النشر للجامعات ـ الأولى ـ 1996.

9 ـ مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية : ـ دار النشر للجامعات ـ الثانية ـ 1996 .

10 ـ هيكل رائد الرواية .. السيرة والتراث : دار النشر للجامعات ـ الثانية ـ 1996 .

11 ـ شوقي ضيف .. سيرة وتحية : دار النشر للجامعات ـ الثانية ـ 1997 .

12 ـ القصة .. ديوان العرب ك ـ (جزءان) .. الدار العالمية ـ لونجمان ـ 2000 .

* * *

ثانيا : المؤلفات الأدبية :

1 ـ الليالي .. سيرة ذاتية : مكتبة مصر ـ الثانية ـ 1992 .

2 ـ عمار يا مصر : مجموعة قصصية ـ مكتبة مصر ـ الثانية ـ 1991 .

3 ـ الدموع لا تمسح الأحزان : مجموعة ـ مكتبة مصر ـ الثانية ـ 1991 .

4 ـ حكاية الليل والطريق : مجموعة ـ مكتبة مصر ـ الثانية ـ 1991 .

5 ـ دائرة اللهب : مجموعة ـ مكتبة مصر ـ الثانية ـ 1991 .
(ترجمت إلى الإسبانية) .

6 ـ العشق والعطش : مجموعة ـ مكتبة مصر ـ 1993 .
(ترجمت إلى الإنجليزية) .

7 ـ صرخة فى غرفة زرقاء : مجموعة ـ مكتبة مصر ـ الثانية ـ 1996 .

8 ـ الأفق البعيد : رواية ـ مكتبة مصر ـ الثانية ـ 1992 ،
(ترجمت إلى الإنجليزية) .

9 ـ الممكن والمستحيل : رواية ـ مكتبة مصر ـ الثانية ـ 1992

10 ـ الكهف السحري : رواية ـ مكتبة مصر ـ 1994 .

11 ـ فى البدء تكون الأحلام : خواطر أدبية ـ الهيئة المصرية ـ 1995 .

12 ـ عصر الليمون ـ رواية ـ مكتبة مصر ـ 1998 .

13 ـ رسالة إلى معالي الوزير .. مجموعة قصصية ـ مكتبة مصر ـ 1999 .

14 ـ الشمس تشرق فى غرناطة : رواية ـ تحت الطبع .

وقد تُرجمتْ بعض هذه الأعمال إلى اللغات الإنجليزية والإسبانية والإيطالية والصينية .. وتحولت بعضها إلى أعمال درامية في الإذاعة

والتلفزيون ، وقُررتْ بعض هذه الأعمال فى بعض الجامعات المصرية والعربية .

* * *

ثالثاً : الدراسات الدينية :

1 ـ أولو العزم من الرسل : دار النشر للجامعات ـ (جـ1) 1996 .

2 ـ محمد .. الرسول والرسالة : دار النشر للجامعات ـ (جـ 2) 1998 .

3 ـ المسلمون في العالم .. تحت الطبع .

* * *

فهـرس

رسالة . . إلى معالى الوزير

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الإيداع : ٣٥٦٧ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى : 7 - 1343 - 11 - 977